خطاب الكتمان والخفاء عند الإمَام الهادي عليه السلام
وأثره في تهذيب متطلبات الواقع المعاصر

الدكتور عباس إسماعيل سيلان الغراوي
أستاذ ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة واسط
abbasabbas19812015@gmail.com

The Discourse of Concealment and Secrecy in the Approach of Imam Al-Hadi (PBUH) and Its Impact on Refining the Requirements of the Contemporary Reality

Dr. Abbas Ismail Silan Al-Gharawi
Professor , Department of Arabic Language , College of Arts , University of Wasit

الملخص:-

يتناول البحث ظاهرة اعتماد المواجهة السرية عند الامام الهادي بسبب الاوضاع والظلم المستشري من السلطات وترصدها لقدوم الامام الثاني عشر وهذا ما جعلها تضاعف جهودها مع الائمة المتأخرين في سبيل استئصال خط العترة، فكان الامام بالمرصاد، ليواجههم بما اعجزهم بالرغم من اسراره فهو من افضل المهدين للإمام الحجة، بأسلوب يحقق المطلوب دون التعرض للمكروه، وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج المهمة وربطها بتحقيق الافادة للواقع الحالي رغبة في توجيه الامة الوجهة الصحيحة

الكلمات المفتاحية: الامام الهادي، الخطاب، الكتمان، الخفاء، الواقع المعاصر، التهذيب.

Abstract:-

This study explores Imam Al-Hadi's strategic use of secrecy in response to the pervasive oppression by ruling authorities, who were vigilant in their attempts to suppress the anticipated emergence of the Twelfth Imam. The intensified efforts of these authorities to eliminate the lineage of the Imams were met with a calculated and concealed resistance by Imam Al-Hadi, which rendered their efforts futile. Recognized as one of the most effective preparers for the arrival of Imam Al-Mahdi, Imam Al-Hadi employed tactics that achieved critical objectives without attracting undue harm. The research uncovers significant findings, linking them to actionable insights for the present-day context, with the aim of guiding the nation towards a more righteous path.

Key words: Imam Al-Hadi, discourse, concealment, secrecy, contemporary reality, refinement.

المقدمـة:

شهِدَ العصر العباسي في أوائل القرن الثالث الهجري توالي الحكام على دكّة الحكم، وجُلُّ أغراضهم كان في القضاء على أمل الدنيا في قدوم المصلح الذي وُعِدَت به، فمع نهايات رحيل المصطفى شرع (صلوات الله عليه) في بيان من هم الائمة من بعده، وعمد امير المؤمنين والائمة الطاهرون لمواصلة ذلك الإنباء، وهذا جعل الأمر بين قطبين: قطب التبليغ لأجل الحفاظ على الأمة من الذهاب وراء الضلالات والانحرافات، وقطب التضحية اذ تعرض الائمة المطهرون لغدر السلطات ومضايقاتهم، وهذا الاخير يحول دون الأول ويعرقل تقدمه، ومن هنا قابله هذا تصرفٌ بكتمان من قبل الأئمة عليهم السلام ولا سيما مع الائمة المتأخرين على النحو مما نجده مع الإمَام علي الهادي عليه السلام الذي تحمّل جهد طاقته للحيلولة دون هدف الماكرين ولاسيما انه عاصر اشد طغاة بني العباس (المتوكل العباسي)، فكان العمل يشوبه التخفّي وتجنب المواجهة المباشرة، وتقفوه منهجيّة عظيمة محكمة متقنة، وجميل أنْ يكون الإسرار للحقّ بيانًا، وأنْ يكون الصمت للحقيقة بيانًا، ليكون العنوان (**خطاب الكتمان والخفاء عند الإمَام الهادي عليه السلام وأثره في تهذيب متطلبات الواقع المعاصر**).

ذلك أنّ افعال العظماء، مثلهم عظيمة، وهي لا تصدر إلّا عن حكمة، والكلام لا يكون أعلى من الكتمان إلّا إذا كانَ له فائدة مقبولة، فمثلًا وجدنا أكثر من شخص يلجأ إلى أنْ ينصح الإمَام الحسين عند خروجه إلى العراق، وحاولوا منعه من هذا الفعل، على النّحو من عبدالله بن جعفر وابن الحنفية وابن عباس والفرزدق...، حتى انهم تنكروا عليه إخراجه للنساء بركابه، ولكن في الاتجاه المقابل لم نجد أي تساؤل أو اعتراض من الإمَام العباس ولم نجده يتكلم بكلام يقف بموازاة كلام سيد الشهداء، بل التزم الصمت والكتمان، وكأن حال العباس يقول إذا صاحبت امام زمانك فكن على انْ تسمع افضل من ان تتكلم، ومن هنا ندرك ان فعل الإمَام العباس بصمته كان عبارة عن عظمة الموالاة والطاعة لإمام زمانه، فالتكتم في مثل هذه الحالة ارقى من التكلم. ونحن اليوم في عملنا هذا نعمد إلى قراءة ما جرى في عصر الإمَام الهادي من نهج مبارك يكتنفه الحذر والكتمان، وتساعد القرائن على توضيح ما فيه من أسرار. وثمة إشكالية تتركز بالإفادة من نهج الإمام في عمله السري ليكون طريقًا إلى الافادة منه في وقتنا المعاصر، ذلك أن كل دراسة لابد أن تكون لها نوافذ يُطل بها على الواقع لتحقق فائدة في تقويمه وتوجيهه المسار السليم، نريد ان

نقول ان كل ما وردنا عنهم عليهم السلام هو هدايا ثمينة يمكننا أنْ نستفيد منها فائدة قصوى في جعل الواقع صورة موافقة للطموح، مليئة بالجمال والسعادة الحقيقة، نريد ان نقول ان فضلهم المبارك هذا ليس في الامور الواضحة فحسب، بل حتى في الامور التي يشوبها الكتمان.

ومن هنا قسمت خطة البحث على تمهيد وثلاثة مباحث.

أما التمهيد فبُيِّن فيه مفاهيم العنوان فضلًا عن ذكر موجز للسيرة الذهبية للإمام الهادي لتكون هذه الانطلاقة ذات فائدة للقارئ وحتى القارئ العارف بها، فهي لا تخلو من بركة الاستنارة ببركة العترة الطاهرة، على اننا سعينا في بيان السيرة إلى التنقيب عن لآلئ نفيسة لم يسلط عليها الضوء بصورة جلية

ثم جاء المبحث الاول فكان ببيان الدوافع التي دعت إلى انتهاج هذا النهج. وانتقل الأمر إلى المبحث الثاني لبيان العوامل الكاشفة عن حقيقة الكتمان والخفاء بذكر ما يمكن أنْ يكون عوامل مساعدة على جلاء الغموض الذي قد يكتنف مفاصل هذا المنهج؛ ولأجل أنْ يكون هذا بوابة إلى المبحث التالي الذي هو (الكتمان والخفاء ـ السبل والنتائج ـ)؛ فقد كانت ما بين قوليّة وفعليّة أو الاثنين معًا، ولا يمتنع تداخل العوامل الكاشفة في تفسير الكتمان والخفاء؛ لذا كان فهم المبحث الثالث يتوقف على ما قبله كثيرًا؛ لأنه الأدوات التي بها يحلل، وفي كل ذلك كان الباحث يوظف الدراسات المعاصرة التي يمكنها ان تكتشف التواصل بالصمت والخفاء متمثلة بقضايا لسانية معاصرة نحو الافتراض المسبق والمقامية ومتضمنات القول ومراعاة المخاطب... مع التأكيد على نقطة مهمة، وهي تعزيز تلك الظّواهر بما يمكنه أن يكون فوائد إجرائية في وقتنا المعاصر، فمع أن هذا العنوان ليس بالجديد على القارئ العزيز الا ان توظيف تلك الظواهر سيجعل العملية اكثر فائدة، وذات قيمة علمية تزاد على ما في المكتبة الامامية، وليتجلى ان تراثهم العظيم يجري مع الزمان، فهو نص مفتوح لا يغلق ابوابه امام الاجيال المتلاحقة.

التمهيد: التعريف بمفاهيم العنوان

ـ القسم الاول - التّعريف بالإمَام الهادي عليه السلام

ـ اسمه وكنيته وألقابه

اسمه عليّ بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهذا الاسم (علي) له مكانته في نفوس أهل البيت عليهم السلام حتى ورد عن الإمَام الحسين عليه السلام: **(لو ولِدَ لي مائةٌ لأحببت أنْ لا أسمّي أحدًا منهم إلا عليًّا)**[١]، فلِعليٍّ ذكريات عظيمة في نفوس العترة الطّاهرة، فهو صورة الحقّ في أعينهم المباركة، فكانوا يستذكرونه بمسميات أبنائهم، ومن هنا تكرر لديهم هذا الاسم العظيم في السلسلة (علي بن أبي طالب، علي السجاد، علي الرضا ـ علي الهادي)، واللطيف أنّ الإمَام الهادي لم يحظ بمسمى أمير المؤمنين فحسب، بل عاضدها بكنيته أيضًا، وكذلك لقبه المرتضى، فجاء في الموروث **(وكنيته أبو الحسن لا غيرها. وألقابه: النجيب، المرتضى، الهادي، النّقيّ، العالم، الفقيه، الأمين، المؤتمن، الطّيّب، المتوكل، العسكريّ. ويقال له: أبو الحسن الثالث، والفقيه العسكريّ)**[٢].

إذن نلحظ تقاربًا بين الإمَام الهادي وجده امير المؤمنين في الاسم والكنية واللقب، وهذه رسالة تُدلي بخطاطة التقارب بين النهجين.

ـ الميلاد والاستشهاد

في ليلة سماوية مليئة بالبركات تشرق الدنيا على خبر مُنبئ باستمرار الخير وبدوام نعم الله على عباده حيث الإمَام الهادي يولد بالمدينة للنصف من ذي الحجة سنة اثنتي عشرة ومائتين وبعضهم قال يوم الثلاثاء الخامس من رجب سنة أربع عشرة[٣].

ويبدو لي أنّ غياب التّشخيص الدّقيق في الميلاد تحديدًا يعود إلى سعي أئمة أهل البيت للحفاظ على المولود من السّلطة العباسيّة السّاعية لإلحاق الأذى بخطّ رسالة الأئمة، فكانوا يتكتّمون على المولود إلّا عن الخاصّة.

ملخص الأمر أنّ الإمَام ولد في المدينة حيث مدينة الأجداد، ولكن التّوجس العباسيّ لم يكن ليستريح له بال إلا بأن يرى تحركات الإمَام عن كثب، ومن هنا كانت المطالبة بمثوله إلى مدينة الخلافة العباسيّة في وقتها (سامراء) يقول الشيخ سليمان القندوزي الحنفي **((ولما كثرت السعاية في حقه عند المتوكل أقدمه من المدينة إلى سامراء وأسكنه بها وأقام بها عشرين سنة وتسعة اشهر إلى أن توفي بها في أيام المعتز بالله))**[٤].

وهكذا عندما نقرأ التاريخ نجد ظاهرة بارزة، وهي أنّ العباسيين كانوا يسعون لمراقبة الأئمة الطّاهرين، فكانوا يطالبونهم بالمثول إليهم في قصورهم او أماكن خلافتهم[٥]، على النحو مما وجدناه عند الإمَام الهادي إذ طالبوه بأن يحضر إلى سامراء، ظنا منهم أنهم سيحجمون دوره، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره وليكون المكر العباسي عائدًا على الأمّة بالفضل من حيث لا يشعرون، وذلك بانتشار النهج الإمَامي في أماكن متعددة، فكان لـ(سرّ من رأى) حظوة من هذه العمليات العباسيّة؛ فـ **(مدّة مقامه بـ (سُرّ من رأى) عشرون سنة وتوفّي فيها، وقبره في داره. وكان في سنيّ إمامته بقيّة ملك المعتصم، ثُمّ الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز. وفي آخر ملك المعتمد استشهد مسمومًا. وقال ابن بابويه وسمّه المعتمد)**[٦] بعد ان عاش حياة كل ما فيها مجد وكرامة ويذكر انه رحل في الثالث من رجب سنة أربع وخمسين ومائتين، وثمة أقوال أخر بتحديد موعد الرحيل[٧].

اي إنّ الإمَام رحَل عن مدينته، وبقي أواخر عمره هناك عشرين عامًا، ولا شكّ أنّ الإبعاد عن المنشأ مما يثير الشُّجون ولا سيما إذا كان الإبعاد عن موطن الأحباب إلى موطن المتربصين سوءًا، بيد أنّ الكرامة المحمديّة تجري في دماء العترة الطّاهرة لتجعل من سامراء مدينة أخرى لتجعلها مدينة مقدّسة تنعم بوجود الإمَام عليه السلام[٨].

ـ سجاياه المثاليّة وتأثيرها بالآخر ـ المناوئ والمخالف ـ

بالرغم من التّكتيم الإعلاميّ على العترة الطّاهرة إلا أنّ الحقيقة لا يخفيها غلس الظّلام؛ فتشعّ بالرّغم من زوبعة أغبرة الحاقدين ومحاولات غرابيلهم في حجْبِ الطّاهرين، ومن هنا وصل إلينا من تراث الامام الهادي عليه السلام ما يجعلنا نطمئنُّ إلى أنّ صولة الحقّ لا تحجب ولا تُعزل، فمن التّراث ما جادت به الأقلام وأيّدته الأفهام، فالسّجايا الحميدة تجلت فيه كرابعة النّهار، يدركها القريب والبعيد، الصّديق والخصيم، ليرى الجميع روعة الجمال وعظمة الفعال إلى درجة أنّه أدهش المناوئ بجمال سجاياه وعلو فيوضاته، روي **((عن يحيى بن هرثمة، قال: دعاني المتوكل وقال: اختر ثلاثمائة ممن تريد واخرجوا إلى الكوفة، وخلّفوا أثقالكم فيها، واخرجوا على طريق البادية إلى المدينة، وأحْضروا عليّ بن محمد النقيّ إلى عندي مكرمًا " معظمًا مبجلًا. قال: فقمتُ وخرجْنا، وكان في أصحابي قائد من الشّراة، وكان لي كاتبٌ مُتشيّعٌ، وأنا على مذهب الحشويّة، وكان ذلك الشّاري يناظر الكاتب،**

وكنتُ أسمعُ إلى مناظرتهما لقطع الطّريق. فلما صرْنا وسط الطّريق قال الشّاري للكاتب: أليس من قول صاحبكم عليّ بن أبي طالب: " ليس في الأرض بقعة إلّا وهي قبرٌ، أو سيكون قبرًا "؟ فانظر إلى هذه البريّة أين من يموت فيها حتى يملأها اللهُ قبورًا " كما تزعمون؟ قال: فقلتُ للكاتب: أهذا من قولِكم؟ قال: نعم. قلتُ: صدق، أين مَن يموت في هذه البريّة العظيمة حتى تمتلئ قبورا "؟))[٩]، ويظهر من النَّص أنّ ابن هرثمة تبنى رأي الشّاري، وأخذ على الشّيعيّ عدم مقدرته على الإجابة، ولكن هل الأمر هو على ما جرى في تلك الرواية؟ للإجابة على ذلك نستمرّ في تتمة الرّواية؛ اذ يذكر ابن هرثمة أنّه بعد تلك المجادلة **(سرنا حتى دخلنا المدينة، فقصدت بيت أبي الحسن علي بن محمد بن الرّضا عليهما السلام ، فدخلت عليه فقرأ كتاب المتوكل فقال: " انزلوا، وليس من جهتي خلاف ". قال: فلما حضرت إليه من الغد، وكنا في تموز أشدّ ما يكون من الحرّ، فإذا بين يديه خيّاط وهو يقطع من ثياب غلاظ - خفاتين - له ولغلمانه، ثم قال للخياط: " اجمع عليها جماعة من الخياطين، واعمد على الفراغ منها يومك هذا وبكّر بها إلى في هذا الوقت ".**

ثم نظَرَ إلى وقال: " يا يحيى، اقضوا وطرَكم من المدينة في هذا اليوم، واعمل على الرّحيل غدًا " في هذا الوقت ". قال: فخرجْنا وإنما بيننا وبين العراق مسيرة عشرة أيّام، فما يصنع بهذه الثياب؟! ثم قلتُ في نفسي: هذا رجل لم يسافر، وهو يقدّر أنّ كلّ سفر يحتاج فيه إلى هذه الثياب، والعجب من الرّافضة حيث يقولون بإمامة هذا مع فهمه؟!)، وهنا يظهر حجم الغرابة عند ابن هرثمة ! فهو بنى في قرارة نفسه أنّ الإمَام الهادي صاحب مكانة متعالية وهذا مما تناقلته الالسن، ولكن الذي يراه الآن خلاف المألوف، وذلك بعمل ملابس شتائيّة في وقت الصيف! فالاطار الزمني (تموز) [١٠] يستدعي ملابس خفيفة؛ لكن الذي حدث كان بخرق ذلك الاطار بجلب ملابس شتائية غليظة، وهنا لا توجد علاقة منسجمة بين الأمرين؟ ليبدأ التّساؤل يكبر في ذهن ابن هرثمة ! لكنه سلَّم أمره، ولم يحر جوابًا، بل ازدادت الغرابة بقوله: **(فعدتُ إليه في الغد في ذلك الوقت، فإذا الثياب قد أحضرت، فقال لغلمانه: " ادخلوا، وخذوا لنا معكم لبابيد وبرانس " ثم قال: " ارحلْ يا يحيى " فقلت في نفسي: هذا أعجب من الأول، أيخاف أنْ يلحقنا الشّتاء في الطّريق حتى يأخذ معه اللبابيد والبرانس ". فخرجتُ وأنا أستصغرُ فهمه حتى إذا وصلْنا إلى مواضع المناظرة في القبور)**، ولا ينسى القارئ العزيز انّه بهذا المكان جرى الحوار في مسألة أنْ تكون كلُّ أرضٍ قبرًا، في

هذا المكان لم يتمكن الشّيعيّ من الرّدّ وكان مستسلمًا، أما الآن فسيبدأ الجواب الفعليّ، حيث **(ارتفعتْ سحابة، واسودّت وأرعدتْ وأبرقتْ حتى إذا صارت على رؤوسِنا أرسلتْ بردًا من الصخور، وقد شدّ على نفسه وغلمانه الخفاتين، ولبسوا اللبابيد والبرانس وقال لغلمانه: " ارفعوا إلى يحيى لبادة، وإلى الكاتب برنسًا " وتجمعنا والبرد يأخذنا حتى قُتِل من أصحابي ثمانون رجلًا، وزالت، ورجع الحرّ كما كان. فقال لي: " يا يحيى، أنزل من بقِيَ من أصحابك ليدفنَ من مات، فهكذا يملأ الله هذه البرية قبورًا)** هنا يجد القارئ أنّ الإمَام أعطى الجواب من دون أنْ يتعرض لسؤال، فإذا كان الكاتب الشّيعي ـ مثلما مرّ في الرّواية ـ تعرّض لسؤال من دون جواب في الذّهاب، فها هو جواب من دون سؤال في الإياب، فيا لها من كرامة لا يمكنها أنْ تصدر إلا من شخص حباه الله بمنزلة، رفيعة القدر عالية المكانة. وإذا كان ابن هرثمة قد استغرب من عمل الملابس الشّتائيّة وتعجّب أكثر باستصحابها في السّفر، فها هو يتجلّى له أنّه قد كان مُخطئًا تمام الخطأ، فالإمَام مسدَّد من الله تعالى والمروي عن العترة الطاهرة ليس بمروي عن الهوى؛ لتكون النّتيجة بعد ذلك كما يذكرها **(فرميتُ نفسي عن الدابّة واعتذرت إليه، وقبّلتُ ركابه ورجله، وقلتُ: أشهدُ أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمدًا " رسول الله، وأنّكم خلفاء الله في أرضه، وقد كنتُ كافرًا " وإنّي الآن أسلمْتُ على يديك يا مولاي. قال: فتشيّعتُ، ولزمتُ خدمته إلى أنْ مضى)**[١١].

هكذا تظهر العجائب والمناقب، وهكذا يتحول المناوئ إلى موالٍ مُصاحب.

وهنا يتبيّن كيف أنّ الإمَام لم يبيِّن ما كان يقصد إليه، بل تكتّم على الأمر ليتفاجأ ابن هرثمة، وليدرك تمام الإدراك أنّ الإمَام لا ينطق عن الهوى، ولو أنّه عليه السلام أوضح الأمر من البداية وأنّ الدُّنيا ستمطر مطرًا شديدًا أو نحو ذلك لو عمد إلى ذلك لوجد إنكارًا محتملًا أو استهجانًا واستهزاءً بيد أنّ الصّمت عن الإخبار عاد بنتاجه عندما انكشفت الحقيقة ليتجلى للجميع أنّ الإمَام يفعل الأصلح، وإنْ بدا ذلك الأصلح غير مألوف عند المتلقّي في بعض الأحايين.

ومن هنا ندرك أنه لا بد من الامتثال للمعصوم وعدم التّشكك بأيّ فعل يقومُ به، فما يقوم به إنّما يقوم به عن حكمة، وفي ركاب اهل البيت علينا أن نستطيع معهم صبرا، ذلك أنّ الأمر صعب مستصعب.

وتتوالى الأخلاق الفريدة والكرامات العجيبة حتى يصبح الإمَام محطّ الأنظار حتى من غير الإسلام، ينقل (**عن هبة الله بن أبي منصور الموصليّ، قال: كان بديار ربيعة كاتب لنا نصراني، وكان من أهل كفرتوثا يسمى (يوسف بن يعقوب) وكان بينه وبين والدي صداقة. قال: فوافى ونزل عند والدي فقال: ما شأنك قدمت في هذا الوقت؟ قال: قد دعيت إلى حضرة المتوكل، ولا أدري ما يراد مني إلا أنّي قد اشتريت نفسي من الله تعالى بمائة دينار قد حملتها لعلي بن محمد بن الرضا عليهما السلام معي، فقال له والدي: وُفّقْتَ في هذا**)[١٢]. أقول ما الذي جعل هذا النَّصرّاني ينذرُ ذلك المبلغَ الكبير للإمام الهادي من أجل أنْ يحفظ نفسه من البطش العباسيّ؟

ألا يكون قد فعل ذلك وقد سمع من الأنباء ما يترجم علو المكانة للإمام عليه السلام وانّه باب الله الذي منه يؤتى؟ يكمل الرّاوي فيقول (**قال: وخرج إلى حضرة المتوكل وانصرف إلينا بعد أيام قلائل فرحًا [مستبشرًا]، فقال له أبي: حدّثني بحديثك. قال: سرتُ إلى سرّ من رأى وما دخلتها قط، فنزلتُ في دار، وقلتُ: يجب أنْ أوصل المائة دينار إلى أبي الحسن بن الرضا عليه السلام قبل مصيري إلى باب المتوكل، وقبل أنْ يعرف أحدٌ قدومي. قال: فعرفتُ أنّ المتوكّل قد منعه من الرّكوب، وأنّه ملازم لداره**)، وهنا ينقل لنا معاناة الإمَام على لسان النَّصرّاني، فالإمَام لم يكن يتمتع بحرية كاملة (**منعه من الرّكوب، وأنّه ملازم لداره**)، فبالرغم من عدم اتخاذه الحلّ الثّوريّ طريقًا للنهوض بالأمّة إلا أنّه عليه السلام حُورب أيضًا، ممّا جعل اتّصاله بأتْباعه يُعدّ أمرًا محظورًا بما في ذلك النَّصرّانيّ الذي يذكر (**فقلتُ: كيف أصنعُ؟ رجلٌ نصرانيٌّ يسألُ عن دار ابن الرّضا؟ لا آمنُ أنْ يُنذَر بي، فيكونُ ذلك زيادةً فيما أحاذره. قال: فتفكرْتُ ساعةً في ذلك، فوقَعَ في قلبي أنْ أركبَ حماري وأخرج من البلد، ولا أمنعه من حيثُ يُريد، لعلّي أقفُ على معرفة دارِه من غيرِ أنْ أسألَ أحدًا ". قال: فجعلتُ الدراهم في كاغدة وجعلتها في كمي، وركبت فكانَ الحمار يخرقُ الشّوارع والأسواق يمرّ حيث يشاءُ، إلى أنْ صرتُ إلى باب دار، فوقفَ الحمار فجهدتُ أنْ يزول فلم يزل، فقلتُ للغلام: سلْ لمن هذه الدار؟ فقيل: هذه دار ابن الرضا عليه السلام، فقلتُ: اللهُ أكبر! دلالةٌ والله مقنعة. قال: فإذا خادمٌ أسودُ قد خرج، فقال: أنت يوسف بن يعقوب؟ قلتُ: نعم. قال: انزلْ، فنزلتُ، فأقعدني في الدّهليز، ودخل، فقلتُ في نفسي: وهذه دلالةٌ أخرى، من أين يعرف هذا الخادم اسمي وليس في هذا البلد أحدٌ يعرفني ولا دخلته قطّ؟! قال:**

فخرج الخادم وقال: المائة دينار التي في كمّك في الكاغذ هاتها. فناولته إيّاها وقلتُ: هذه ثالثة، ثم رجع إلى وقال: ادخل، فدخلتُ إليهُ وهو في مجلسه وحده، فقال: " يا يوسف، أما بانَ لك؟).

وهنا توجّه السّؤال المباشر إلى النَّصّراني (أما بان لك؟) لكن ما الذي بان؟

الذي كان يجب أنْ يبان هو المتمخض عن الكرامات الإمَامية من تسيير الدابّة إلى حيث مكان الإمَام وتوقّفها عنده(١٣)، وهكذا استبشر ذلك النَّصّراني عندما رأى ناقته تأخذ بيده إلى ما يريد دون أنْ يقف الأمر عند هذا الحدّ، فاذا بالبيت هو بيت الإمَام نفسه، واذا بالخادم يخرج ويخاطب النَّصّراني باسمه من دون أنْ يكون هناك معرفة مسبقة، وهذا يقوّي الحجة في ذهن النَّصّرانيّ والمتلقي بصورة عامة، ووثق الامر عندما اخبره بإخراج المبلغ بقيمته من كمّه.

وهنا لغرض معرفة قوة الكرامة الإمَامية علينا أنْ نعلم أنّ الخطاب؛ لكي يحقق نجاحه يجدر توفر الافتراض المسبق بين المنشئ والمتلقي، ويقصد به المعلومة المشتركة بين طرفي الخطاب (المنشئ والمتلقي)(١٤)، فمثلًا عندما نقول لشخص نعرفه: أبوك قدِم من الخارج، فقد باتت بيننا معلومة مشتركة وهي أن اباه كان في سفر، لكن لو كان مقيمًا وغير مسافر فهذا مرفوض ونصٌّ غير موافق للواقع، أما في نص الإمَام فنجد أن الخادم يتكلم مع النَّصّراني باسمه، وهذا في الأصل لم يكن معلومًا عند المنشئ (الخادم) وكذا المبلغ وقيمته، وفي الحالتين تكلم الخادم وهو قد علم ذلك بأنباء من الإمَام الهادي، ليكون كلّ هذا دلائل على مكانة الإمَام المقدّسة(١٥).

أقول إذا كان موضوع الافتراض المسبق من الموضوعات المهمة في الدراسة الألسنية، الا انه يمكنه أن يكون عند الإمَام من نمط خاصّ؛ ليكون الخطاب التواصلي المعجز في سيرة الأئمة الطاهرين. ويعزز هذا ما نجده في تتمة الرواية عندما يقول النَّصّراني رادًّا على سؤال الإمَام السّابق: **(يا مولاي، قد بان من البراهين ما فيه كفاية لمن اكتفى. فقال: " هيهات هيهات، أما انّك لا تسلم، ولكن سيسلم ولدك فلان، وهو من شيعتنا، يا يوسف، إنّ أقوامًا يزعمون أنّ ولايتنا لا تنفع أمثالك، كذبوا والله، إنّها لتنفع أمثالك).**

وهنا يظهر حرص الإمام على هداية ذلك النصرانيّ لكن هذه المحاولة لم تنجح، ومع ذلك سعى الإمام ليؤثر به، ومن هنا علينا أنْ نقوم بالمحاولات لأجل الدين وإنْ لم نحقق النجاح، فالأعمال بالنيات لا بالإنجازات الفعليّة، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (الاعلى: ٩).

ويتجلى بالرواية أيضا أهمية الموالاة للعترة الطاهرة، اذ تتحقق بها الفوائد الكثيرة وانها عامة الفائدة، وهي باب واسع يسع الضالين وينجيهم من عذاب مبين، نسأل الله أن يوفقنا لأن نكون في ركابهم دنيا وآخرة.

ولما لم يرَ الإمام من ذلك النّصرانيّ امتثالًا حقيقيًّا قال له بما يعبر عن عظمة التّعايش السلمي عند الامام وروح التسامح: **(امضِ فيما وافيت فإنّك سترى ما تحبّ " قال: فمضيتُ إلى باب المتوكل فقلت كلّ ما أردت وانصرفت قال هبة الله: فلقيت ابنه بعد هذا وهو مسلم حسن التشيع، فأخبرني أنّ أباه مات على النّصرانية، وأنّه أسلمَ بعد موتِ والدهِ، وكانَ يقول: أنا بشارة مولاي عليه السلام)**[١٦].

ويلحظ هنا أكثر من كرامة متواصلة، تقف دلائل لحثّ ذلك النَّصّراني على الإيمان ففضلًا عما سبق يظهر إخباره بسلامته من الخليفة، ثم عدم سلامته بانتهاج طريق الإسلام الحقّ مع اخباره بأن من ذريته ـ أي النَّصّراني ـ من سيسلم ويحسن في إسلامه. ولا شكّ أنّ كثرة الكرامات ينبئ عن علو رفعة صاحبها من جهة، ومن جهة اخرى يترجم ضعف النفوس في وقته مما يلجئ إلى إظهار الكرامات لأجل كسب الآخر بأسلوب قويّ في الإقناع.

ملخص الامر: أن الإمَام فتح قلبه للنصراني، وأراه اكثر من علامة رغبةً في كسبه بأسلوب لطيف يدعو إلى الامتثال والإذعان بيدَ أنّ النَّصّراني أعرض تكابرًا، ومع ذلك فالإمَام استمر بتفضله بأنْ أخبره بأنّ من صلبه من سيحسن أمره ويصلح دينه، ومن هنا ندرك لزوم التسامح مع الآخر بأسلوب لطيف والتواصل بالخير والمودة والنصح الجميل. ولعله يفاد من ذا ان محاولة الامام وان لم تنجح مع ذلك النصرانيّ في وقتها الا انها نجحت على المستوى البعيد ليحسن إسلام ابنه، ويعبر عن نفسه بـ (بشارة).

هكذا يظهر لنا كيف أنّ الإمَام اقنع الآخر بسجاياه العظيمة، فهو لم يكن لشيعته فقط

بل كان لأمته وان انتهج نجاح العمل بالكتمان.

إنّ سطوة العصر وإنْ عرقلت العمل الرّسالي من المواصلة الا انها تمنعه في الظاهر ولكن صولاته السرية تبقى تسري في الأمة، وهكذا يكون أمر الإمَام الغائب (عجل الله فرجه الشريف) في هذه الأيام يسري فضلها، وإن لم نرَ صاحبها عيانًا وجهارًا، نسأل الله أنْ يمنّ علينا منه بنظرة كريمة وتصويب مسار.

القسم الثاني: التّعريف بمفهومي الكتمان والخفاء

لا شكّ أنّ هذين المفهومين يمكنهما أنْ يتداخلا فيما بينهما، فالكتمان هو صمت، والصمت هو كالخفاء لعدم الإظهار، فهما متقاربان إلى حدٍّ ما، إلّا أنّه توجد بعض الفوارق التي تجعل لكلّ مفهومٍ استقلاليّته.

والكتمان: من (**ك ت م: كتمته السّر كتمًا وكتمانًا وكتّمه : بالغ في كتمه. وسرّ وحديث مكتّم، واستكتمته أمري، وهو كتّام وكتّامة للأسرار وكاتمته العداوة: ساترته وفلان لا يكتتم، أي لا يكتم أمره وسرّه، وهو ظهرة، وليس بكتمة**)[١٧]. فهو في الحديث والفعل، وجاء في نهج البلاغة بمعنى الإغضاء عن الشيء وعدم البوح به بقوله عليه السلام من كتاب لطلحة والزبير: (**وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُما بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ**)[١٨] وواضح عطف (الكتمان) على التقية للمناسبة المعجميّة بينهما؛ فكلاهما يوحي بإضمار شيء وإظهار شيء، من أجل تحقيق غاية مقصودة،، بيد أنّ التقية هي لحذر من الآخر اما الكتمان فربما يكون لحذر او خوف او غير ذلك ، فأحيانا تكتم ممن توالي او تحبّ، لغاية ما وقد وجدنا الإمَام يكتم عن مواليه في بعض الأوقات ويصرح لهم في أوقات أُخر بحسب الظرف، ومن هنا كان مصطلح الكتمان محور دراسة، وقد جاء التأكيد على الاقتداء به في أقوال الائمة الطاهرين على النحو من قول الإمَام زين العابدين عليه السلام: (**وددتُ والله أني افتديتُ خصلتينِ في الشّيعة لنا ببعض لحم ساعديّ: النّزق وقلّة الكتمان**)[١٩]، ولعلّ اللفظ الذي يُقارب الكتمان أيضًا هو الصّمت، وقد رويتُ أحاديث كثيرة عن أهل البيت في الصّمت، ومنها ما روي عن أبي عبدالله: (**يا سالم احفظ لسانك تسلم ولا تحمل الناس على رقابنا**)[٢٠]، ومن هنا علينا أنْ نضع حديثنا في محلّه، وعند من يكون الحديث معه ذا فائدة.

أما الخفاء فمن خفِي، و(**الخُفْيةُ من قولك: أخْفَيْتُ الصوت إخفاءً، وفعله اللازم:**

اختَفَى. والخافِيةُ ضد العلانية. ولقيته خفيًا، أي: سرًّا. والخَفاءُ الاسم خَفِيَ يَخْفَى خَفاءً... والخِفاءُ: رداء تلبسه المرأة فوق ثيابها)[٢١]. فهو لا يخرج عن إضمار شيء، ومنه أيضًا **قول أمير المؤمنين عليه السلام: (أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ)**[٢٢]، فهو بمعنى عدم الظّهور أيضًا والعمل به دون أن يكون في هذا إشهار للعمل.

المبحث الأول

دوافع منهج الكتمان والخفاء

المناهج الإمَامية المباركة تتحرك على وفق خطة قرآنيّة مدروسة بحسب متطلبات العصر واحتياجات الأمّة، فقد ظهر البطش العباسيّ سرًّا وعلانية، وقد ورد عن الإمَام الهادي عليه السلام قانون عام في التّعامل مع كل زمان بأنّه **(إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور فحرام أنْ يُظنّ بأحد سوءًا حتى يُعلمَ ذلك منه، وإذا كان زمانُ الجورِ أغلب فيه من العدل فليس لأحدٍ أنْ يظنّ بأحد خيرًا ما لم يُعلم ذلك منه)**[٢٣]، فمناط التّعامل مع كلّ إنسان يكون بالاطمئنان التّامّ له مع النّظر بعين الحُسبان أوضاع ذلك الزّمان من جهة العدل والجور.

أقول: فما ظنّك بعصرٍ يُقصد فيه إلى قبر سفينة النّجاة قبر سيد الشهداء فيُهدم ويُحارب؟! يذكر لنا التاريخ أنّ المتوكل الملعون **(أمَر بهدم قبر الحسين، وهدم ما حوله من الدور، وأنْ يعمل مزارع، ومنع النّاس من زيارته، وخرّب، وبقِيَ صحراء، وكان المتوكّل معروفًا بالتّعصب فتألّم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء، فمما قيل في ذلك:**

بـــالله إنْ كانـــت أميـــةُ قـــد أتـــتْ ... قتـــلَ ابـــن بنـــتِ نبيهـــا مظلومًـــا

فلقـــد أتـــاهُ بنـــو أبيـــهِ بمثلـــهِ ... هـــذا لعمـــري قـــبرُه مهـــدومًا

أسـفوا علـى ألّـا يكونـوا شـاركوا ... في قتلـــهِ فتتبعـــوهُ رَميمًـــا))[٢٤]

ومن عداءات العباسيين انه بعد أن هدى الامام الهادي ام المتوكل لعلاج يشفي ولدها اهدت له هدية (بدرة وعشرة الاف دينار...) بعد هذا ((سعى البطحاني بأبي الحسن عليه السلام إلى المتوكل، وقال: عنده سلاح وأموال، فتقدم المتوكل إلى سعيد الحاجب انْ يهجم ليلًا عليه، ويأخذ ما يجد عنده من الاموال والسلاح ويحمله اليه.

قال ابراهيم بن محمد: فقال لي سعيد الحاجب: صرتُ إلى دار ابي الحسن عليه السلام بالليل ومعي سُلّم فصعدت منه إلى السطح، ونزلت من الدرجة إلى بعضها في الظلمة، فلم أدر كيف اصل إلى الدار، فناداني ابو الحسن عليه السلام من الدار: يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة، فلم ألبث أن أتوني بشمعة، فنزلت فوجدت عليه جبة صوف وقلنسوة منها وسجادته على حصير بين يديه وهو مقبل على القبلة فقال لي دونك البيوت، فدخلتها وفتشتها فلم أجد فيها شيئا ووجدت البدرة مختومة بخاتم ام المتوكل وكيسا مختوما معها فقال لي ابو الحسن عليه السلام دونك المصلى فرفعته فوجدت سيفا في جفن ملبوس.

فأخذت ذلك وصرت اليه، فلما نظر إلى خاتم امه على البدرة بعث اليها فخرجت اليه فسألها عن البدرة... قالت: كنت نذرت في علتك إن عوفيت أن أحمل اليه من مالي عشرة الاف دينار فحملتها اليه))[٢٥]. هكذا تكون العظماء، يلاقون العدو بالاكرام والاحسان، فيكرمهم الله بأن يرد مكائد اعدائهم على اعقابهم.

ولم تتوقف جلاوزة العباسيين من تتبع أتباع العترة المحمديّة، والأمر هذا موجود في كلّ زمان إلّا أنّه أصبحَ في تلك الحقبة متفشيًا، ممّا جعل الأئمة الطّاهرين يجهدون في سبيل الحفاظ على أتباعهم، ويعلمونهم منهج الكتمان وعدم التّعرض للسّلطة، بل لا بأس بالانتماء الظاهريّ إلى بلاطها من دون أنْ يؤثر هذا في العقيدة الإيمانية والسّلوك العلوي؛ فنجد من أتباع العترة من مثل ابن السكيت يعيش قرب الخليفة، وهو في عداد رجاله، ولعلّ القدر شاء أنْ يكون ابن السكيت ككنيته (السّكّيت) او انها وافقت ما به من ظاهرة، فهي صيغة مبالغة توحي بكثرة السكوت والمبالغة فيه، وقد كان بحقّ في قمّة الحذر من الخليفة العباسيّ؛ فلسانه للخليفة وقلبه للإمام الهادي، ذلك أن مجالسته للسلطان وقربه منه يجعله في قمة الخطر، فمع أقل تحرك مجانب لرأي الخليفة يعني الوقوع بالهلكة، لقد كان ابن السكيت ماهرًا في عدم الانجرار وراء إغضاب السلطان إلى درجة أنّ الخليفة رأى به رجلًا مواليًا للسلطة مما جعله يكلفه بأنْ يعقد مناظرة مع الإمَام الهادي عليه السلام؛ لتقع المناظرة[٢٦] التي كان فيها الإمَام مجيبًا لكل أسئلة ابن السكيت؛ ليكون ابن السكيت خصمًا في الظّاهر، ولتكون هذه المناظرة التي لا يرغب فيها المناظِر (ابن السكيت) الا بالانكسار لنفسه فهو أمامَ إمامِه وحبيبه.

لا شكّ أنّ الخليفة لم يعمد بتكليف ابن السكيت بهذه المهمّة إلا بعد أن رأى منه معرفة

قوية وتظاهراً بعدم المعرفة بالإمَام. ولا شك أنّ الإمَام كلّفه بهذه المسؤولية؛ لأنه يدرك أنّه سينجح بالاختبار ولا يغترّ بسلطان الدنيا؛ لأنّ قضاء حوائج الموالين يحتاج إلى أنْ تكون من أصحاب القرار، وهذا لا يكون إلا بالتقرب من السّلطة، ومن هنا كان زجّ الرّجال بالسّياسة مقبولًا على وفق قضية ابن السكيت، أي بشرطين:

١ـ تقديم الخدمة للموالين والعمل على مساندتهم وتقديم المعونة لهم، والنصح لعباد الله.

٢ ـ ضمان التقوى للذات وعدم الانجرار وراء المغريات.

وهذان الشرطان يجب توافرهما معًا لمن سعى إلى الانضمام بسلك السلطة.

وقد يتساءل بعض لماذا كل هذا الحذر؟ أما كان بالإمكان أنْ يصرح ابن السكيت بموالاته للإمام، وهل سيحول هذا دون ولوجه في السلطة، أو ما الذي سيحدث لو صرح بحقيقة انتمائه؟!

الحقيقة أنّ هذا الحذر من الإمَام ومن حوارييه ما كان ليكون لولا سوء العصر الذي واكبه الخط الرّساليّ، فقد ساءت أحوال النّاس وضعُف الدين في قلوبهم، ولعلّ علة نقش خاتم الإمَام الهادي بـ(الله ربي وعصمتي من خلقه)[٢٧]، كان لعلة تلائم العصر الذي كان فيه، كونه جمع إلى حسن التوكل على الله طلب العصمة من خلقه، ويُستجلى منه أنّ المغرضين كانوا من حوله يهمّون لإيذائه تقرّبًا للسلطة، ومن هنا كان توخّي الحذر منهم بالكتمان وإخفاء الأسرار هو السبيل للنجاة من أذىً متوقع...

ولكن كثرة العيون الموالية للسلطة الجائرة والمغترّة بالذهب والفضة لن يهدأ لها بال حتى تنهل وتعلّ من أكل الحرام، فيبدو أنّها لم تترك ابن السكيت بأمان وراحت توصل أخبارها للخليفة حتى كان هذا سببًا للقضاء على أبرز رجالات الإمَام الهادي ـ فـ**(في سنة أربع وأربعين قتل المتوكل يعقوب بن السّكّيت الإمَام في العربية فإنه ندبه إلى تعليم أولاده، فنظر المتوكل يومًا إلى ولديه المعتز والمؤيد فقال لابن السكيت: من أحبّ إليك هما أو الحسن والحسين؟ فقال: قنبر - يعني: مولى عليّ- خير منهما، فأمر الأتراك فداسوا بطنه حتى مات، وقيل: أمِر بسلّ لسانه فمات)**[٢٨].

لم يشأ ابن السكيت أنْ تكون ثَمّة مقارنة بين الحَسنين وابني المتوكل، فعمِد إلى اختيار

قنبر مع أنه يُكِنّ كلّ الاحترام لقنبر إلا أنّ اختياره وجعله جوابًا للخليفة ليبين للخليفة انّه لم يكن منصفًا بمقارنة ابنيه بالحسنين، وهذا بلا شكّ ممّا سيعرض ابن السّكيت للخطر.

يبدو أنّ ابن السكيت خرج من مضمون كنيته، فجهر بما تحمّل اخفاءه طوال تلك السنين لينال وسام الشهادة، هذه الشهادة رسالة بليغة إلى كل فرد أن يبذل نفسه في سبيل العترة المطهرة وأن لا يفرط بهم، وإن ضحى بمنصب عال أو بالحياة الغالية كما فعل ابن السكيت فلنا به أسوة حسنة.

لقد كان الانتماء إلى خط العترة الطاهرة يُعدّ جرمًا يحاسب عليه المرء، فقد روي **(عن الحسن بن محمد بن علي، قال: جاء رجل إلى عليّ بن محمد بن علي بن موسى عليهم السلام وهو يبكي وترتعد فرائصه فقال: يا ابن رسول الله، إنّ فلانا " - يعني الوالي - أخذ ابني واتهمه بموالاتك، فسلمه إلى حاجب من حُجّابه، وأمره أنْ يذهب به إلى موضع كذا، فيرميه من أعلى جبل هناك ثم يدفنه في أصل الجبل. فقال عليه السلام: " فما تشاء؟ فقال: ما يشاء الوالد الشفيق لولده. قال: " اذهبْ فإن ابنكَ يأتيك غدًا " إذا أمسيت ويخبرك بالعجب من أمرهِ ". فانصرفَ الرجل فرحًا ". فلما كان عند ساعة من آخر النّهار غدًا " إذا هو بابنه قد طلع عليه في أحسن صورة فسرّه وقال: ما خبرُك يا بني؟ فقال: يا أبتِ، إنّ فلانًا " - يعني الحاجب - صار بي إلى أصل ذلك الجبل، فأمسى عنده إلى هذا الوقت يريد أنْ يبيت هناك، ثم يصعدني من غد إلى أعلى الجبل ويدهدهني لبئر حُفِرَ لي قبرًا " في هذه السّاعة، فجعلتُ أبكي وقوم موكلون بي يحفظونني، فأتاني جماعة عشرة لم أرَ أحسن منهم وجوهًا "، وأنظف منهم ثيابًا "، وأطيب منهم روائح، والموكلون بي لا يرونهم فقالوا لي: ما هذا البكاء والجزع والتطاول والتضرع؟ فقلت: ألا ترون قبرًا " محفورًا "، وجبلا شاهقًا "، وموكلين لا يرحمون يريدون أن يدهدهوني منه ويدفنوني فيه؟ قالوا: بلى، أرأيت لو جعلنا الطالب مثل المطلوب فدهدهناه من الجبل ودفناه في القبر، أتحرر نفسك فتكون لقبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خادمًا "؟ قلتُ: بلى والله. فمضوا إليه - يعني الحاجب - فتناولوه وجروه وهو يستغيث ولا يسمع به أصحابه ولا يشعرون به، ثم صعدوا به إلى الجبل ودهدهوه منه، فلم يصل إلى الأرض حتى تقطعت أوصاله، فجاء أصحابه وضجُّوا عليه بالبكاء واشتغلوا عني، فقمتُ وتناولني العشرة، فطاروا بي إليك في هذه السّاعة، وهم وقوفٌ ينتظرونني ليمضوا بي إلى**

قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأكون خادمًا ". ومضى. فجاء الرُّجل إلى علي بن محمد عليه السلام فأخبره، ثم لم يلبث إلا قليلًا حتى جاء الخبر بأن قومًا " أخذوا ذلك الحاجب فدهدهوه من ذلك الجبل فدفنه أصحابه في ذلك القبر، وهرب ذلك الرجل الذي كان أراد أنْ يدفنه في ذلك القبر، فجعل علي بن محمد عليه السلام يقول للرجل: " إنهم لا يعلمون ما نعلم ")[٢٩].

و هذه الكرامة تضاف إلى سجل الكرامات الإماميّة المتتالية، ولكن من هم هؤلاء العشرة الذين أنقذوا ذلك الفتى؟ هل هم من الانس أم من الملاك؟ يبدو أن الله سخر لأوليائه المقربين من يمتثل إلى تنفيذ اوامرهم اذا شاؤوا، ففي رواية **(عن صالح بن سعيد قال: دخلت على أبي الحسن عليه السلام في يوم وروده سرّ من رأى وهو في خان الصّعاليك، فقلت له: جعلت فداك في كل الأمور، أرادوا إطفاء نورك والنقص بك حتى أنزلوك في هذا الخان الأشنع خان الصعاليك. فقال " ها هنا أنت يا ابن سعيد " ثم أومأ بيده الشريفة فإذا أنا بروضات أنيقات، وأنهار جاريات، وجنات فيها خيرات عطرات، وولدان كأنهم اللؤلؤ المكنون، فحار بصري، وكثر عجبي فقال لي: " حيث كنا فهذا لنا عتيد يا ابن سعيد، لسنا في خان الصعاليك ")**[٣٠]، فظاهر ان هناك من يستجيب له عليه السلام اذا شاء الا انه لم يكن ليقصد توظيف كرامته هذه لأجل ذاته وإن استعملها فإنما كان الاستعمال لأجل مواليهم الواقعين في محنة أو شدة، كان عليه السلام يريد الامور تجري بمقاديرها، الا إذا كان في اظهار كرامته تحقيق فائدة فيكون ذلك من اجل تحقيق الهداية للبشرية، فهمومه للأمة لا لذاته[٣١].

ويبدو أنّ إرسال ذلك الفتى الموالي خادمًا لقبر النّبيّ هناك جاء رغبة في إبعاده من الخطر المحدق من العباسيين حيث بعد المسافة ونسيان خبره وإلا فإنّ العبّاسيين لم يكونوا ليتركوا للأئمة الطاهرين أنْ تتسع قواعدهم الجماهيريّة[٣٢].

هذا الأمر جعل العترة الطاهرة كما أسلفنا يعمدون إلى الكتمان، وهو أمر وجدناه جليًّا عند الامام الهادي، فكان يسعى لإبعاد أتباعه عن البطش السلطويّ قدر الإمكان ويطالبهم بالتكتم على أحوالهم حتى اذا كان هؤلاء الاتباع من البيت العباسي نفسه، على النّحو ممّا روي **(عن المنتصر بن المتوكل قال: زرع والدي الآس في بستان وأكثرَ منه، فلما استوى الآس كلّه وحسن، أمر الفراشين أنْ يفرشوا له على دكان في وسط البستان وأنا قائمٌ على رأسهِ، فرفع رأسَهُ، إلى وقال: يا رافضيّ، سلْ ربّك الأسْود عن هذا الأصل الأصفر**

ما لهُ من بين ما بقِيَ من هذا البستان قد اصفرّ، فإنّك تزعمُ أنّه يعلم الغيب؟ فقلتُ: يا أمير المؤمنين، إنّه ليس يعلم الغيب. فأصبحتُ [وغدوت] إلى أبي الحسن عليه السلام من الغد وأخبرته بالأمر، فقال: " يا بُنيّ، امضِ أنتَ واحفرِ الأصلَ الأصفر فإنّ تحته جمجمة نخِرة، واصفراره لبخارِها ونتنها ". قال: ففعلتُ ذلك فوجدته كما قال عليه السلام، ثم قال لي: " يا بُني لا تخبرنّ أحدًا " بهذا الأمر إلا لمن يحدثك بمثله "(٣٣)، أي لا تحدث الّا من هو على نهج العترة الطّاهرة، وقد ورد عنه عليه السلام أنّ (**الحكمة لا تنجع بالطّباع الفاسدة**)(٣٤)، وربّما يكون الإخبار الصّريح وجلب المعلومة من ابيه والاتيان بها إلى الخليفة الأب المتوكل يكون دليلًا على تورط الابن بالمذهب الإمامي بصورة لا غبار عليها .

ان الحديث مع المناوئ العنيد لا يخلو من اثارة مجادلات وتحاسد وتربص بسوء، وهو الذي كان موجوداً في المتوكل، إذ إن رؤية الفضائل من العترة الطاهرة يزلزل عرشه ويسلب مقبوليته من المجتمع، فكان يسعى للقضاء على الإمام الهادي عليه السلام والتّضييق عليه بشتى السبل.

ومن هنا ندرك أنّ الدوافع وراء اعتماد منهج الخفاء والكتمان تتمركز بالآتي:

١ ـ الحفاظ على الاتباع من البطش السلطوي، ومن ثم الحفاظ على الخط الاسلامي الصحيح.

٢ ـ السعي لقضاء حوائج الأتباع وتسهيل أمورهم بصورة سرية مثلما كان الأمر بتكليف ابن السكيت وزجّه بالسّياسة من أجل تسهيل حوائج الأتباع وربّما الكشف عن مخططات السلطة للقضاء عليهم والحيلولة دون وقوعها.

٣ ـ استمرار النّهج الامامي والحفاظ عليه فمثلما تبين أنّ عيون البلاط كانت تتربص السوء بالإمام واتباعه ومن هنا كان الكتمان طريقًا لتجنب هؤلاء الجائرين.

٤ ـ توسيع دائرة مذهب العترة بأسلوب يحوطه الحذر، فقد رأينا كيف أنّ ابن الخليفة المنتصر بن المتوكل كان من أتباع الامام الهادي، ودافع عنه وعرف عظمة كرامته يوم أخبره الإمام بما تحت الآس المصفرّ من دون أنْ يشهرَ بهذا الا لمن يثق بأمره أنّه على نهجهم.

المبحث الثاني

العوامل الكاشفة عن حقيقة التخفي

إن مما يعين الفهم والكشف عن الأمور المستورة المخفية وجود ما يبين المعنى عند الشيعي الموالي للإمام، وغياب المغزى على غير المؤالف، وأبرز هذه العوامل الكاشفة:

أ ـ الافتراض المُسبق: مر هذا المفهوم فيما سبق، ويمكن اجماله بأنّه في كل تواصل لغوي ينطلق المتكلم والمخاطب (المتلقي) من مُعطيات وفرضيات معروفة من قبل الطرفين متفق عليها، وهذه المعطيات المتفق عليها ضرورة مهمة لإنجاح عملية التواصل والإبلاغ فضلًا عن نجاح عملية الفهم، أمّا في حالة انعدام هذه المعطيات أو في حالة ضعفها، فانّ ذلك سيؤدي إلى سوء الفهم(٣٥).

فمثلًا تسأل شخصًا عن شيء لا يعرفه، فهو هنا يقفُ واجمًا عن الجواب، أو أنّه تغيب عنه الأسس المعرفية التي يمتلكها المتكلم، وهنا يغمض عليه مراد القائل كغموض المغزى على الخليفة المتوكل حين (**قال... لأبي الحسن علي بن محمد... ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب؟ قال عليه السلام: وما يقول ولدُ أبي؟ يا أميرُ في رجلٍ افترضَ الله طاعةَ نبيهِ على خلقهِ وافترضَ طاعته على نبيّه. فأمرَ له بمئة ألفِ درهم. وإنّما أراد أبو الحسن عليه السلام طاعة الله على نبيه فعرّض فظنّ المتوكل أنّه عليه السلام أراد من طاعته على نبيه طاعة عمه العباس، وإنما أراد عليه السلام طاعة الله تعالى لا طاعة عمه**)(٣٦).

ان هذا من التفنن باستعمالات اللغة، فالضمير الهاء الذي ورد في نهاية الرواية (**افترض طاعته على نبيه**)، مبهم غير واضح، ولكن لأنّ السؤال كان عن العباس ظنّ الخليفة أنّ طاعة العباس مفترضة على النّبيّ، ولكن الإمَام أراد: افترض الله طاعة الله على نبيه ـ فالضمير يعود على الله لا على العباس، وسبب غموض المقصد عند الخليفة كان بسبب الخفاء في وضوح الدلالة ولجهل المخاطب بمقصد الامام الحقيقي.

واللطيف بالذكر ان الافتراض المسبق لا يكون ما لم يكن هناك سابق معرفة بين طرفي الكلام (المتكلم والمتلقي) بيد اننا قد نجده يشكل منزلة كرامة عند أهل البيت عليهم السلام عندما نجدهم يتحدثون مع شخص ما ويفاجئونه بمعرفتهم بشيء يضمره من دون أنْ تكون سابق معرفة او حدوث مناسبة عملت على تحقيق المعلومة المشتركة، وهذا الباب ما جاء في الرّواية

أنّه (كان بأصفهان رجل يقال له: عبد الرّحمن، وكان شيعيًا "، قيل له: ما السّبب الذي أوجب عليك القول بإمامة عليّ النقيّ عليه السلام دون غيره من أهل زمانه؟ قال: شاهدتُ ما أوجب ذلك عليّ، وذلك أنّي كنت رجلًا فقيرًا " وكان لي لسانٌ وجرأةٌ، فأخرجني أهل أصفهان سنة من السنين مع قوم آخرين إلى باب المتوكل مُتظلمين، فأتينا باب المتوكل يومًا " إذ خرج الأمر بإحضار علي بن محمد النقيّ عليه السلام بعض من حضر: من هذا الرجل الذي أمر بإحضاره؟ فقيل: هذا رجل علويّ تقول الرافضة بإمامته، (ثم قيل: ويقدر أنّ المتوكل يحضره للقتل). فقلت: لا أبرح من هاهنا حتى أنظر إلى هذا الرجل أيّ رجل هو؟ قال: فأقبل راكبًا، وقد قام النّاس يمنة الطريق ويسرتها صَفّين، ينظرون إليه، فلما رأيته وقع حبُه في قلبي، فجعلتُ أدعو له في نفسي بأنْ يدفع الله عنه شرّ المتوكل، فأقبلَ يسيرُ بين النّاس وهو ينظر إلى عرفِ دابّته، لا ينظرُ يمنةً ولا يسرةً، وأنا دائم الدُّعاء له. فلما صار إلى أقبلَ بوجهه عليّ وقال: " قد استجابَ اللهُ دعاءك، وطوّل عمرك، وكثر مالك وولدك ". فارتعدتُ ووقفْتُ بين أصحابي يسألوني وهم يقولون: ما شأنك؟! فقلت: خيرًا " ولم أخبرهم بذلك. فانصرفْنا بعد ذلك إلى أصفهان، ففتح الله عليّ وجوها" من المال حتى اليوم، أغلق بابي على مائة ألف ألف درهم، سوى مالي خارج الدّار، ورزقت عشرة من الأولاد، وقد بلغتُ الآن من العمر نيفًا " وسبعين سنة، وأنا أقول بإمامة هذا الذي علِم ما في قلبي واستجاب الله دعاءه فيّ)[٣٧].

فالقول: (قد استجابَ اللهُ دعاءك) عرفه الاصفهاني؛ لأنه افتراض مسبق بين الاصفهاني نفسه والامام المعصوم عليه السلام ولم يدرك أصحاب الاصفهاني ذلك لغياب ذلك الافتراض عنهم اما انه لماذا اضطرب الاصفهاني؟ فهذا عائد إلى انه دعا بقلبه ولم يعلم أحد بذلك الا أنّ الامام فاجأه بالكشف عما أضمره، يؤيد ذلك (الذي علم ما في قلبي) فكان قول الامام بمنزلة رسالة إليه أنه الإمام الموكل من الله تعالى، وليعقب الامام برد الجميل للأصفهاني بالدعاء له بطول العمر وكثرة الاموال والاولاد وهو الذي تحقق، وتحقق أيضا تحول ذلك إلى الاصفهاني إلى المذهب الإمامي؛ لأنّه رأى من الإمام ما يجعله يطمئن إلى لزوم موالاته ومتابعته.

ونستفيد من الرّواية مكانة الدّعاء للإمام المعصوم، ونحن اليوم بحاجة ماسّة إلى مضاعفة دعواتنا للإمام الغائب (عجل الله فرجه الشريف)، والامام بلا شك سيرد لنا ذلك بالفوائد

العظيمة في الدنيا فضلا عن الاخرة، فأهل البيت كرماء ويردُّون الجميل بالذي هو أجملُ منه، ومن هنا أقول لك عزيزي القارئ قف قليلًا وادْعُ لإمامِك (عجل الله فرجه الشريف).

وعود على بدء نلحظ أنّ الكرامة الإماميّة تكمن في تحقق الافتراض المسبق بين الإمام والمخاطب من دون أن يكون هناك سابق علم لتحقق هذا الافتراض، على النّحو مما حدث في الأيام التي خرج (بها بغا أيام الواثق في طلب الأعراب، فقال أبو الحسن عليه السلام: " اخرجوا بنا حتى ننظر... فمرّ بنا تركيّ وكلمه أبو الحسن عليه السلام بالتركية، فنزل عن فرسه وقبّل حافر دابته. قال: فحلف التركي وقلت له: ما قال الرجل لك؟ قال: هذا. نبيٌّ؟ فقلت: هذا ليس نبيًّا ". قال: دعاني باسمٍ سُمِّيْتُ به في صغري في بلاد الترك، وما علِمه أحدٌ إلى السّاعة)[٣٨].

فهنا يتحدث الإمام مع ذلك التركي بلغته الأمّ (التركية)، ويخاطبه باسمٍ كان يُدعى به وهو طفل صغير، وقد تُنوسيَ ذلك الاسم إلى أنْ جاء الإمام، فخاطبه به ليحرّك عنده ذكريات الطفولة، ويُثير فيه الدّهشة، كيف لذلك الشخص أنْ يعرفه وهو من الأسرار التي مضت عليها مدة طويلة من الزّمن؟ كيف لهذا الشّخص العربيّ أنْ يحدثه بلغته التركية؟

هذا الأمر جعل ذلك التركي ينزل خضوعًا من فرسه بكلّ خشوع وإذعان مُقبِّلًا حافر دابة الإمام، وما هذا الا لتأثره بسمو منزلة الإمام وعلو قدره وأنه بمنزلة الأنبياء.

أقول إذا كان الإمام الهادي قد علم باسم ذلك التركي في صغره، فمن المؤكد أنّ الإمام المهدي مُطلع على فعالنا بقدرة الله تعالى الذي منحه فيوضات وكرامات، ومن هنا فعلينا أنْ نحسن باسرارنا واعلاننا كي نكون له (عجل الله فرجه الشريف) بسمة ومحلّ رضا وقبول، الا يحسن بنا أن نستغفر فما فاتنا من العمر ليس بالقليل، لم يخل من تسويد الصحائف، نسأل الله المغفرة والهداية.

ب ـ **الأقوال المضمرة**: أو الكلام المضمر الذي: هو الكلام الذي يحتوي على قدر من المعلومات إلا أنّ تحقيقها في الواقع (أي: إنجازها) وتحويلها إلى فائدة عند المتلقي هو أمر مرهون بسياق الحال (المقام)[٣٩]، ومما يمثل هذا ما رواه (**محمد بن الفرج الرخجي، قال: كتب أبو الحسن (أجمعْ أمرَك، وخُذْ حذرَك)، فبينا أنا في حذري؛ إذ صفد بي وضرب على كلّ ما أملك، فمكثتُ في السّجن ثماني سنين، ثم ورد عليّ كتابٌ منه في السجن (يا محمد لا تنزل في ناحية الجانب الغربيّ) ففرج عني بعد**

يوم، فكتبت إليه أنْ يسأل الله أنْ يرد عليّ ضيعتي، فكتب إلى (سوف يردُّ إليك وما يضرك ألا يرد عليك)، قال النوفليّ: كتب له بردِّ ضياعه، فلم يصل الكتاب حتى مات)[٤٠]، إنّ مراسلات الإمَام كانت تحتمل مجموعة من التأويلات يمكن تحديدها بالتماس مقام الحال، فقوله (أجمع أمرك وخذ حذرك) قول عامّ جاء نصيحة للمرسَل إليه، ولم يفهم المغزى النهائيّ منه، وإنْ كان ظاهره ثمة خطر محدق، وقد انكشف جلاء الأمر مع مرور الزّمن، ولعلّ عموميّة ذلك الكلام للمُرسَل حفاظًا عليه؛ إذ التفصيل كان

ربّما يهزُّ بالرخجي (المُرْسَل إليه) لو علم تفاصيل الحقيقة بتمامها غير أنّ التمهيد له بجواب عامّ كان تمهيدًا لتقبّل الواقع، ولا ننسى أنّ الجواب الصريح يحتمل أنْ يقع بأيدي مَن يخافُ عليه من شرّهم. وكذا في قوله الأخير (يا محمد لا تنزل في ناحية الجانب الغربي)، فهو كلام موجز خلفه كلام باطنيّ يدلّ على أنّه سيُطْلَق سراحه ويخرج لا محالة، وأفاد قوله الأخير (سوف يرد إليك وما يضرك ألا يرد عليك) أنّ المال سيرجع إلّا أنّه سيقع عارض يحول دون الوصول إليه، وهو وقوع الموت به، ولم يصرح به الإمَام؛ لأنّه يعني انقطاع الأمل لذلك الشّخص. يفهم من هذا أنّ الكلام المفترض أو المقدر يكون في غالبه من باب الكلام المحظور.

ج ـ **الزّمن:** وهو كفيل بجلاء التخفّي مرّ بنا كيف أنّ كلام الإمَام الهادي لم يُفهَم في حينه، وإنّما كان الزّمن كفيلًا لتحقيق الفهم، وتتجلّى في هذا البحث الموجز شيوع هذه الظّاهرة، مع أنّه من باب التّمثيل لا الحصر[٤١] ومر منها كثير من القضايا، ومن هذا الباب أيضًا ما رويَ **(عن الحسن بن محمد بن جمهور، قال: كان لي صديقٌ مؤدِّبُ ولد بغا أو وصيف - الشّكّ مني - فقالَ لي: قال الأمير [عند] منصرفه من دار الخلافة: حبس أمير المؤمنين هذا الذي يقولونَ له ابنُ الرّضا اليوم ودفعه إلى علي بن كركر، فسمعتُه يقول: " أنا أكرم على اللهِ من ناقةِ صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (سورة هود: ٦٥) ليس يفصح بالآية ولا بالكلام، أي شيء هذا؟ قال: قلت: أعزك الله تعالى توعدك؛ أنظرْ ما يكون بعد ثلاثة أيام؟ فلما كان من الغد أطلقه واعتذر إليه، فلما كان اليوم الثالث وثب عليه باغر وبغلون أوتامش وجماعة معهم، فقتلوه وأقعدوا المنتصر ولده خليفة)**[٤٢].

ويظهر كيف أنّ الإمام لم يصرح بما سيؤول إليه أمر ذلك الخليفة المتوكل، ولكنه ذكر آية تحدثت عن مصير قوم صالح وإمهالهم ثلاثة أيام ليكون اليوم الثالث يوم هلاكه كهلاك قوم النبي صالح عليه السلام، وظهر من الرواية أنّ الزّمن هو الذي كشف عن مقصد الإمام بالاستشهاد بتلك الآية المباركة.

ويفهم من الرواية أنّ الباغي تدور عليه الدائرة، ولو بعد حين، وأن موالاتهم ستقلب بالضد على الموالي، ليخسر مواليهم الدنيا والاخرة، وهذا ينفعنا في وقتنا المعاصر بأن نجعل انتماءنا لطريق الحق فحسب، فله يكون التعصب لا لغيره.

ومن هذا الباب ما روي **(عن عبد الله بن طاهر، قال: خرجت إلى (سرّ من رأى) لأمر من الأمور أحضرني المتوكل، فأقمتُ مدةً ثم ودعتُ وعزمتُ على الانحدار إلى بغداد، فكتبتُ إلى أبي الحسن عليه السلام أستأذنه في ذلك وأودّعه، فكتب لي: " فإنّك بعد ثلاث يُحتاج إليك ويحدث أمران ". فانحدرت واستحسنته، فخرجتُ إلى الصيد ونسيتُ ما أشار إلى أبو الحسن عليه السلام، فعدلت إلى المطيرة وقد صرت إلى مصري وأنا جالس مع خاصتي (إذ ثمانية فوارس) يقولون. أجب أمير المؤمنين المنتصر، فقلت: ما الخبر؟ فقالوا: قُتِل المتوكل، وجلس المنتصر، واستوزر أحمد بن محمد بن الخصيب، فقمت من فوري راجعًا ")**[٤٣].

وهنا مِثْل ما يظهر، خطب عظيم، يتجلّى بقتل الخليفة العباسيّ (المتوكل)، ولم يخبر الإمام ذلك المخاطَب بهذا الخطب؟ وانّما أخرج كلامه مبهمًا، وتكفّل الزمن ببيان مقصد الإمام، وانّما أضمر الإمام التّصريح؛ فالحدث الذي سيقع من الأمور الصّعبة، والحديث بها يُفاقِم من شدة الأحداث، وربّما يُوقعُ بما لا يُحمدُ عُقباه.

د ـ إيقاع المترصد بغير ما يتوقع: عاش الإمَام تحت رقابة شديدة، والغرض من التّشدّد على تحركاته انّما كان لأجلِ الإطاحة به على النّحو ممّا فعله البطحانيّ يوم وشى بالإمام عليه السلام ـ مثلما مرّ ـ غير أنّ الذّكاء الفائق للإمام كان دومًا هو المتغلّب بجعل العيون تقع على غير ما تريد، ومن ثَمّ كانت محاولات المداهمات السريّة غير مُجدية سوى جدوى عجز الدّولة الحاكمة[٤٤].

وهذا الأسلوب (إيقاع المترصد بغير ما يتوقّع) يجني ثماره بالحفاظ على الخط الإماميّ، وربّما عاد بكسب ذلك المترصد وجعله من الموالين على النّحو مما رأيناه مع ابن هرثمة في

بداية البحث يوم رأى المعاجز من الإمام، وكيف وقع الموت بأصحابه في الصّحراء بسبب البرد الذي لم يكن الوقت وقته، ذلك ان من اسس قوة التأثير في المتلقي ايقاعه (**على دقيقِ النّظَرِ؛ إذ لا يَصِلُ إليهِ إلا بعْدَ تعَبٍ، والنّفْسُ مُولَعَةٌ بما حُجِبَتْ عنهُ؛ أَلَا تَراها تَبْقى مُتشوّقةً مُدّةَ الطّلَبِ**)[٤٥]، ومثلما يقول: (ريفاتار[٤٦]... أنّ قيمةَ كُلِّ خاصّيّةٍ أُسْلوبيّةٍ تَتَناسَبُ معَ حدّةِ المُفاجأةِ الّتي تُحْدثُها تناسبًا طَرْديًّا بحيثُ كُلَّما كانتْ غيرَ مُنتظَرَةٍ كانَ وقْعُها على نفْسِ المُتقبِّلِ أعمَقَ)[٤٧]. وهذا الامر ظهر جليا مع الامام الهادي عليه السلام ليكون المترصد واقعًا برعونة عجزه.

المبحث الثالث

الكتمان والتخفي ـ السبل والنتائج ـ

يمكن القول إن التخفي هو الكتمان في العمل والتلطف فيه وصولًا إلى تحقيق النتائج المرجوة، ويتباين بين قولي وفعليّ، وقد يجمع بين الأمرين، لذا كان هذا المبحث على ثلاثة أنحاء:

النحو الأول: سُبُل الكتمان والإخفاء في التواصل الكلاميّ

التواصل الكلاميّ قد يكون على مستوى المنطوق، وهذا إذا كان ثَمّة لقاءات بين الإمَام وأصحابه، وقد قلّ هذا بسبب الرقابة، أو على مستوى المكتوب، وهذا إذا كانت اللقاءات من المحظور. وسيلقانا أنه حتى هذا، كان محظوراً؛ فمرّة الإمَام الهادي يمنع التدوين، ويطلب من بعض أصحابه الحفظ وتجنب الكتابة، ومرة نجده يأمر بتقليل المكاتبات أو صبغها بالطابع التلميحي، معتمدا اكثر من سبيل وعلى النحو الاتي:

ـ استبدال اللغة

أشار البحث إلى هذا في بعض ما سبق، وما يجري هنا هو تفصيل لما سبق، ونبدأ برواية رواها الحواري الفذّ (**علي بن مهزيار قال: أرسلتُ إلى أبي الحسن الثالث غلاميّ، وكان صقلبيًا، فرجع الغلام إلى متعجبًا، فقلتُ له: ما لكَ يا بُني؟ فقال: و كيف لا أتعجب؟! ما زال يكلمني بالصّقلبية كأنّه واحد منّا، وإنما أراد بهذا الكتمان عن القوم**)[٤٨].

فيبدو من قوله (وإنّما أراد بهذا الكتمان عن القوم) أنّ اللقاء تمّ بحضرة آخرين يُخشى

منهم، فمعلوم أنّ عيون الدولة كانت تترصد كلَّ حركات الإمَام الهادي[٤٩]، ولا يمنع أنْ تُكلِّفَ أناسًا يتقمّصون دور الموالين أو جلساء الإمَام؛ ليكونوا أقربَ إلى الانفتاح على أخبار الإمَام عليه السلام؛ لذا كان الإمَام بفراسته وبقربه من الله يعرف كيف التّعامل مع هكذا أناس، بلزوم الحذر وإسقاط مؤامراتهم.

زد على ذلك أنّ المرسَل إليه كان هو عليّ بن مهزيار، وهو من رجالات الإمَام المقرّبة؛ لذا كان خطاب الإمَام لرسوله الصقلبيّ بلغة صقلبيّة من باب كتمان العمل عن السّامعين الذين كانوا بحضرة الإمَام، فلربّما كان منهم مَن كان يستهدف هكذا حوارات إلا أنّ الإمَام أحبط أهدافه باستبدال اللغة، أو ربما يكون ذلك ليس من الجواسيس سوى أنّه يُخشى عليه أنْ يبتّ بما جرى عن حسن نية، فيقع هذا عند مَن يجري على يديه التهلكة لأصحاب الإمَام.

ويجتنى مع هذه الثمرة ثمرة أخرى، وهي الإقرار العام من السامعين الجالسين ببراعة الإمَام التواصليّة؛ إذ تكلّم بغير لغته، ومع ذلك أجاد إلى درجة أنّ الغلام الصقلبيّ أصابته الدّهشة والتّعجُّب جرّاء ذلك... ناهيك عن إدراك ذلك المتصيّد للإمام وأصحابه بأنّه مُخطئ مُذنب؛ فهو يصبو للإيقاع بمَن فضّله الله تعالى على الآخرين، بمن مكّنه الله من اللغات لأجل عالميّة إمامته.

ومن ذا ما روي في حادثة تزويج الإمَام العسكريّ؛ فقد (**كان بشر بن سليمان النخاس من ولد أبي أيوب الأنصاري أحد موالي أبي الحسن وأبي محمد عليه السلام، فدعاه أبو الحسن عليه السلام، وكان يحدث ابنه أبا محمد، فقال: يا بشر، إنّك من ولد الأنصار، وهذه الموالاة لم تزلْ فيكم يرثها خلف عن سلف، وأنتم ثقاتنا أهلَ البيت، وكتبَ كتابًا لطيفًا بخط رومي ولغة رومية، وطبع عليه خاتمه، وأخرج شقة صفراء فيها مائتان و عشرون دينارًا، وأنفذه إلى بغداد، وقال له: احضر معبر الفرات ضحوة يوم كذا إلى أنْ تبرز للمبتاعين جارية صفتها كذا وكذا، ويأتي البيع، فعند ذلك تعطيها الكتاب. قال: ففعلت كذا...، فلما نظرتْ إلى الكتاب بكتْ بكاءً شديدًا، وقالت للنخاس بعني من صاحب هذا الكتاب، فما زلت أشاحّه في ثمنها حتى استقرّ الأمر، واستوفى منّي الدّنانير، وتسلمت منه الجارية مستبشرة؛ فكانت تلثم الكتاب، وتضعه على خدها**)[٥٠]، ولكن ألا يمكن أنْ يكاتبها بالعربية، فهي

تجيدها، فحين قال لها بشر النّخّاس: (**العجب أنّك روميّة ولسانك عربيّ؟ قالت: نعم، من ولوع جدّي وحمله إيّاي على تعلّم الآداب أن أوعز إلى امرأة ترجمانة له في الاختلاف إلى، وكانت تقصدني صباحًا ومساءً وتفيدني العربيّة حتى استمرّ لساني عليها واستقام**)[٥١]، ومع ذلك فإنّ مكاتبتها بالروميّة قد تدلي بفوائد لا تُجتنى فيما لو كانت بالعربيّة، فمن جهة تبقى الرّوميّة اللغة التي نشأت معها، وتلقتها يوم طفولتها، ومن جهة أخرى أنّ السّرّيّة تحبّذ أنْ تكون الكتابة بالروميّة في ظلّ مشروع زواج مهمّ يتولّد منه ولادة منقذ البشريّة، ولادة مَن تهيّأ الخلفاء العباسيون للقضاء على مشروعه قبل وقوعه ولكن يأبى الله إلا أن يتمّ نوره.

فضلا عن ذلك ان مكاتبة الامام لها بلغتها ليبين فضله وانه امام مُنصَّب من الله تعالى مثل ما حدث مع مخاطبته لأناس غير عرب بلغاتهم الأصل فيما سبق وكل هذا يؤكد مكانة الامام، روى (**أبو حمزة نصير الخادم قال: سمعت أبا محمد عليه السلام [أي الحسن العسكري] عنه يكلم غلمانه بلغاتهم فيهم ترك وروم وصقالبة، فقلت في نفسي: هذا وُلِد بالمدينة، ولم يظهر حتى مضى أبو الحسن ! فكيف هذا؟ فأقبل عليّ، فقال إنّ الله بيّنَ حجّته منْ سائر خلقه وأعطاه معرفة كلّ شيء؛ فهو يعرف اللغات والأنساب والحوادث، ولولا ذلك لَمَا كان بين الحُجّة والمحجوج فرق**)[٥٢]، ولا شك ان الموالي من غير العرب قد كثروا وتفشى شيوعهم في المجتمع آنذاك، ومن هنا كثرت ظاهرة مخاطبتهم بلغتهم الأم من قبل العترة الطاهرة تأنيسًا لهم وترغيبهم في الدين الجديد الإسلام.

ـ الجواب الموجز

إنّ الرّجل البليغ هو الذي يختار للظّرف ما يناسبه من كلام، فيكون كلامه خيرَ تمثيل للواقع، ويخرج بصورة تكون تجسيداً حقيقيًا لما يجري على السّاحة، وصعوبة ظرف الإمَام كان لها الأثر في إيجاز كلامه. روى (**أبو محمد الفحّام بالإسناد عن أبي الحسن محمد بن أحمد، قال حدثني عمُّ أبي، قال: قصدت الإمَام يومًا، فقلتُ: إنّ المتوكل قطعَ رزقي، و ما اتُّهِم في ذلك إلّا علمه بملازمتي لك، فينبغي أنْ تتفضل عليّ بمسألته، فقالَ (تُكفى إنْ شاء الله)، فلمّا كان في الليل طرقني رسلُ المتوكل، رسول يتلو رسولًا؛ فجئت إليه فوجدته في فراشه، فقال: يا أبا موسى يشتغل شغلي عنك وتنسينا نفسك أي شيء لك عندي؟ فقلت الصلة الفلانية، وذكرت أشياء، فأمر لي بها وبضعفها، فقلت للفتح: وافى علي بن محمد إلى**

هاهنا، أو كتب رقعة، قال: لا، قال: فدخلت على الإمَام، فقال لي: يا أبا موسى هذا وجه الرضا، فقلت: ببركتك يا سيدي ولكن قالوا: إنّك ما مضيت إليه ولا سألت. قال: إنّ الله تعالى علِمَ منّا أنّا لا نلجأ في المهمّات إلا إليه، ولا نتوكّل في الملمّات إلا عليه وعوّدنا ـ إذا سألناه ـ الإجابةَ، ونخاف أنْ نعدل فيعدلَ بنا)(٥٣).

إنّ ملازمة الإمَام كانت تعدُّ جُرمًا عظيمًا تودي بصاحبها إلى قطع الصلات الممنوحة له.. وجواب الإمَام الهادي لذلك الذي قُطع رزقه بـ (تُكفى إن شاء الله) ذو إيجاز واضح، فلم يقل (تُكفى قطع رزقك أو تكفى ذلك الشرّ، أو سيحدث كذا وكذا، وستنجو من هذه المحنة... إلى غير ذلك من الكلام المقارب) على أنّ جوابه الموجز الباعث على الطمأنينة المُدعَم بالتفاؤل لم يكن بكل هذا الإيجاز فيه لولا أنّ في الإطناب استدعاءً إلى مساوئ القوم التي كان الإمَام يتجنّبها غالبًا في حديثه، ويترك وضوحها للزمن، وهو الذي نجده برجوع الحقّ إلى أهله... زيادة على ذلك فإنّ الإمَام لم يكتب بأمر ذلك إلى الخليفة، بل بقي بعيدًا عن السلطة على أنّه لو قصدها لوجد الامتثال بنسبة كبيرة لأجل تلبية غاياتهم ونيل المقبولية من العامة، فكان في إعراض الإمَام عنهم وتوسّله بخالقه في كل حين كان ذلك خير دليل على عدم شرعيّة تلك الحكومة او طلب الحاجة منها... لقد كان سلاحه الدعاء والبقاء بعيدًا عن الدولة ورجالاتها لقوله (وعوّدنا ـ إذا سألناه ـ الإجابةَ)...، ويفاد من ذا الاعتماد الدائم على الله وحده كلَّ حين، وهو درس للموالين بأنْ تكون الوجهة الحقيقية له تعالى، ولا سيما في زمن، الغيبة الزمن القادم محمّلًا بجعبته شتّى الرّزايا..

ـ التدوين بين اعتماده منهجًا واجتنابه تصريحًا لا تلميحًا

إنّ تدوين الأحاديث ونحوها أمر طيب لحفظ الشريعة إلّا أنّه لا يؤمن من وقوعه أو وقوع بعضه بيدِ رجال السلطة التي لا تتورع من الاستعانة بكل ما يخدش بالأئمة؛ فتتذرع به، وتتخذه حجة لتنفيذ مآربها. ولم يكن همّ الأئمة آنذاك غير الحفاظ على وميض نور الهداية وإيصاله إلى عصر الغيبة وعمل كل ما يمكن الإفادة منه في الحيلولة دون التعرّض لمنهاج العترة.

ولقد كانت طائفة من المكاتبات ذات صبغة مبطنة. وانتهاج هذا أو ذاك متروك للظرف الكائن، فبما (**أنّ السلطات الحاكمة كانت تضيّق على الأئمة وتراقب جميع تصرفاتهم**

وتحركاتهم وقد فرضت عليهم الإقامة الجبريّة في عواصم الحكّام للحدّ من التجمعات حولهم، بل ومن الاتصال بهم؛ لذا فإن الرواة والعلماء كانوا يتّصلون في الغالب بالأئمة الثلاثة: الجواد والهادي والعسكريّ بالمراسلة، ويجد المتتبع لكل واحد منهم عشرات المرويّات بهذا الطريق في مختلف الأبواب)(٥٤).

وفي الوقت الذي نجد اعتماد التدوين للتواصل نجد أنّ الإمَام الهادي عليه السلام يمنع التدوين أحيانًا؛ لأنّ وقوعه بأيدي المترصّدين يعني الهلاك، وهذا ما لا يرجوه في ظلّ ظرف به حاجة إلى استمرار العمل جهد الإمكان؛ يروى عن داود الصرمي، قال: **(أمرني سيدي بحوائج كثيرة، فقال عليه السلام لي: قل لي: كيف تقول؟ فلم أحفظ مثل ما قال لي، فمدّ الدواة، وكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم اذكره إنْ شاء الله والأمر بيد الله)، فتبسمت فقال عليه السلام: ما لك؟ قلت: خير، فقال أخبرني؟ قلت: جعلت فداك ذكرتُ حديثًا حدّثني به رجلٌ من أصحابنا عن جدّك الرضا عليه السلام إذ أمر بحاجة كتب (بسم الله الرحمن الرحيم اذكره إنْ شاء الله)، فتبسّمت، فقال لي: يا داودُ، ولو قلتُ: إنّ تارك التقيّة كتارك الصلاة لكنت صادقًا)**(٥٥).

وقرْنُ الصلاة بالتقيّة لاشتراكهما في قيمومة الدين الإسلامي؛ فهذه عمود الدين الإسلاميّ، وتلك حياته... زد على ذلك أنّ التقيّة إيمانٌ بالقلب وجحود باللسان، والقلب هو السند الأساس الذي يرتكز عليه الدين حقيقة ومن ثَمّ وجدناه في القرآن الكريم هو المسؤول عن حقيقة الفرد الإيمانيّة، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن / ١١) يقول الشريف الرضيّ: **(قوله سبحانه [يَهْدِ قَلْبَهُ] إنّما عنى به إثابة قلبه على إيمانه، وإنّما خصّ سبحانه القلوب بهذا الذكر دون سائر الجوارح؛ لأنّ القلب شريف الأعضاء ونفيسها ومقدمها ورئيسها؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾**(٥٦)**، ولم يقل سمع أو بصر أو غير ذلك من آلات البدن...؛ إذ كان القلب ينفرد بخصائص أفعال الإنسان مثل الجرأة والإقدام...، فخصّه تعالى بالذكر؛ لأنّ سائر الأعضاء في حكم التابعة له والمنوطة به)**(٥٧).

ومع ذلك فلا يعني هذا فتح المجال أمام التدوين حدّ الانتشار، ففي رواية عن الإمَام الهادي على بعض المكاتبات في زكاة الفطرة **(الفطرة قد كثر السؤال عنها، وأنا أكره كل ما أدّى إلى الشهرة فاقطعوا ذكر ذلك)**(٥٨)، ويقول هشام الحسني: **(تشير هذه الرواية إلى أنّ الإمَام عليه السلام كان يحاذر من كثرة السؤال خوفًا من السلطة التي كانت تراقبه في جميع الحالات)**(٥٩).

ومما يتداخل مع التدوين هو اعتماده شريطة تجنب التصريح، ويدخل في ذا تغيير الأسماء المرسَل إليها، فمن توقيعات الإمَام الهادي عليه السلام إلى بعض أصحابه نجده ينسبهم إلى عبيد بن زرارة، وكانوا قد عرفوا ببني الجهم، وهم من أكابر بيوت الشيعة، وعن أحدهم يقول في نسبته إلى زرارة: **(إن ذلك تورية وسترًا من قبل الإمَام عليه السلام، ثم اتّسع ذلك، وسُمّينا به)**[٦٠]، وتعكس هذه الرواية سعة مدى المراقبة التي كانت تحيط بالإمَام واتباعه، فتقصّي الأخبار كان من أوليات أعمال السلطة، والحفاظ على الأمة باستعمال السريّة كان من أوليات أعمال الإمَام عليه السلام.

النحو الثاني: سبل الكتمان والإخفاء في التواصل الفعليّ

لا يكون المنهج متكاملًا حتى يتّسم بالتنوّع، ولا يكون ذلك التنوّع ما لم تحضر سُبُل الوقاية والحفاظ على ذلك المنهج، وإذا كان البحث فيما سبق قد أبان شيئًا من بيان مواطن الخفاء في الأسلوب القوليّ الخطابيّ والكتابيّ فإنّ الفعليّ هو الآخر كان مبطنًا بالكتمان، ومن هذا الباب:

ـ استعمال وسائل سرية للغاية

قد يعمد الإمام وأصحابه لاستعمال ما لا يمكن للسلطة أنْ تكشف عنه، **فمثلًا** يُذكر أنّ الإمَام الهادي عليه السلام عانى بتلك البرهة منْ **(ضائقة اقتصادية هو وسائر العلويّين وامتنع المؤمنون من إيصال حقوقهم إليه خوفًا من السلطة العاتية، وكان المؤمنون يرسلون حقوقهم بزقاق من الدّهن ويُبيعونها عليه، والسلطة لم تعلم ذلك، وقد لقب بعض أصحاب الإمَام بالدهانين لذلك)**[٦١]. ويظهر من هذا السرية التامة في مواصلة الخط الاسلامي كونه محفوفا بالمخاطر.

ـ أمهات الأئمة من غير البيوت العربية المعروفة

اغلب امهات الائمة من البيوت غير المعروفة ولا سيما الائمة المتأخرون فأم الإمَام الهادي عليه السلام اسمها سمانة المغربيّة[٦٢]، وروي أيضًا أنّ اسمها (مدنب) و(غزال المغربيّة) و(حديث)[٦٣]، وعدم معرفة الاسم المحدد يعني السرية الفائقة وراء ولادة الامام الهادي فضلًا عن ذا **(يمكن أن نكتشف السرّ في أنّ الأئمة بعد الإمَام الصادق عليه السلام لماذا لم يولدوا**

من نساء هاشميّات يشار إليهنّ بالبنان، بل ولدوا من إماء طاهرات عفيفات مصطفاة، فلم يكن هناك زواج رسميّ وعلنيّ، وعليه فلا يكون الإمَام المولود ملفتًا سوى للخواصّ والمعتمدينِ من أصحاب أهل البيت عليهم السلام)[٦٤].

ـ تنصيب الوكلاء الماهيّة والأهميّة

إنّ الالتجاء الدائم إلى الإمَام في كل الظروف مدعاة لسيل لعاب الحقد العباسيّ، لذا كان بديهيًا على الإمَام العمل على صرف الأنظار بتكليف مَن يستطيعون على أداء المهام، وهذا سيكون له فائدة في قادم الأزمان؛ فـ **(من أجل تحقيق عنصر الارتباط بالإمَام في مرحلة الغيبة الأولى، والتي تعرف بالصغرى عمل الإمَام على ربط شيعته ببعض وكلائه بشكل خاصّ)**[٦٥].

ونجد أنّ الإمَام الهادي يطلب من أصحابه الذين انكشف أمرهم بصحبته، يطلب منهم اتخاذ الأماكن البعيدة والتواري عن الأعين[٦٦].

وقد حقق الإمَام بهذا الاستعداد لعصر الغيبة بما خطّطه لشيعته من تعويدهم على الاحتجاب عنهم **(والارتباط بهم من خلال وكلائه ونوّابه وتوعيتهم على الوضع المستقبليّ؛ لئلا يُفاجؤوا بما سيطر عليهم من ظروف جديدة لم يألفوها من ذي قبل...، ومنه يبدو أنّ التعتيم الإعلاميّ حتّى على إمامة الحسن العسكريّ عليه السلام كان مقصودًا للإمام الهادي عليه السلام فتارة ينفي إمامة غيره، وأخرى يكنّيه، وثالثة يصفه ببعض الصفات التي قد توهم إرادة غيره في بادئ النظر، وترشد إليه في نهاية المطاف كما ورد عنه أنّ هذا الأمر في الكبير من ولدي حيث أنّ الكبير هو (محمد) المكنّى بأبي جعفر غير أنّه قد مات في حياة والده، فلم يكن الكبير سوى الحسن عليه السلام)**[٦٧].

ـ تجنّب الأماكن العامّة

إنّ الأماكن المكشوفة عُرضة لوقوع الأنظار المغرضة؛ لذا كان تجنبها منشودًا؛ فـ **(عن محمد بن شرف قال كنت مع أبي الحسن عليه السلام أمشي في المدينة، فقال لي ألستَ من شرف؟ قلت: بلى، فأردت أنْ أسأله عنْ مسألة فابتدأني من غير أنْ أسأله، فقال: (نحن على قارعة الطريق، وليس هذا موضع مسألة))**[٦٨]. لذا جرى العمل باتخاذ أماكن سرية[٦٩]، فـ **(عن**

إسحاق الجلاب قال اشتريت لأبي الحسن عليه السلام غنمًا كثيرة، فدعاني، فأدخلني من إصطبل داره إلى موضع واسع لا أعرفه)[٧٠].

النحو الثالث: سبل الإخفاء على المستويين القولي والفعليّ

مرّ طرف من هذا النحو، والحقيقة يمكن أن يكون هو الأعم الأغلب، إلا أن هذه العجالة لا تسعها إلا أن توجز بسبب ضيق المقام، وهذا النحو مما سيتجلى في مراحل الوصية في تحديد الإمَامة بعد الإمَام الهادي.

ـ مراحل الوصية في تحديد الإمَامة

التصريح بالإمَام بعد الإمَام الهادي في ظل امتلاكه لأربعة أبناء أمر لا بد منه سوى أنّ التصريح به وهو الحلقة التي تفصل بين الإمَام الهادي والإمَام الموعود يجعل الأنظار تتوجه إليه، ويكون عرضة إلى الخطر...؛ لذا نجد أنّ الإمَام لم يشأ التصريح به من أول الأمر واعتمد التدريج في التبيين، ويمكن إجمال هذا التدرج بمراحل ثلاثة:

المرحلة الأولى: عدم السماح بالحديث عن الإمَام بعد الإمَام الهادي، فقد روي عن علي بن عمرو العطّار **(قال دخلت على أبي الحسن العسكري عليه السلام، وأبو جعفر ابنه في الأحياء، وأنا أظنّ أنّه هو، فقلت: جعلت فداك مَنْ أخصّ مِنْ ولدك فقال: لا تخصوا أحدًا حتى يخرج إليكم أمري...)**[٧١].

المرحلة الثانية: وهي التصريح بأنّه ابنه الأكبر، وكان حينها ابنه الأكبر هو أبو جعفر بحياته، فظنّ الأصحاب أنّه الإمَام القادم، وترك الإمَام كشف الحقيقة للزمن. وهذا يكشفه تتمة الرواية السالفة المروية عن العطّار ((... **قال: فكتبت إليه بعد: فيمن يكون هذا الأمر؟ قال: فكتب إلى في الكبير من)**[٧٢]، وهنا ظنّ أنّه كان على الصواب حين ظنّ أنّ الإمَام بعد الإمَام الهادي هو ابنه الكبير أبو جعفر، فهو الأكبر. فضلًا عن ذلك فقد كان صالحًا عابدًا ورعًا [٧٣]... ويروى عن علي بن مهزيار: ((**قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: إن كان كون وأعوذ بالله فإلى من؟ قال عهدي إلى الأكبر من ولدي**))[٧٤]، ويظهر كيف ان الامام وظف الوصف غير المحدد ليجعله طريقا للحفاظ على خط الامامة.

المرحلة الثالثة: مات الابن الأكبر محمد أبو جعفر في شبابه بصورة مفاجئة، وأصبح المؤهل بعده هو الابن التالي الإمَام الحسن العسكري عليه السلام، والحقيقة كان على الجميع أن لا يتصوروا أحدًا إلا بتصريح الإمَام أو ينتظروا ليروا من سيصلي عليه حين لقياه ربه، فقد **(قال أبو الحسن عليه السلام: صاحبكم بعدي الذي يصلي علي ؛ و لم يكن يعرف أبا محمد قبل ذلك، فلما مات أبو الحسن ؛ خرج أبو محمد فصلى عليه)**(٧٥). ولم يتركهم الإمَام الهادي في حيرة؛ فقد جاء التصريح في أخريات حياته من دون تورية على مرأى الشيعة الموالين، فقد (**روى ابن قولويه عن علي بن جعفر و مروان الأنباريّ والحسن الأفطس: أنّهم حضروا يوم توفي محمد بن علي بن محمد عليه السلام دار أبي الحسن، وهي مملوءة من الناس إذ نظر إلى الحسن، و قد جاء مشقوق الجيب حتى قام عن يمينه، و نحن لا نعرفه، فنظر إليه أبو الحسن بعد ساعة من قيامه، ثم قال و أحدث لله شكرا فقد أحدث فيك أمرًا، فبكى الحسن عليه السلام واسترجع، وقال: الحمد لله رب العالمين وأنا أسأل تمام النعمة إنا لله وإنا إليه راجعون)**(٧٦)، فقولهم (ونحن لا نعرفه) إشارة إلى مدى السريّة في الحفاظ عليه، فلم يكن أمره مكشوفًا حتى على الشيعة المشار إليهم بالبنان تحسبًا من كل طارق، وروي عن يحيى بن يسار القنبري: **(أوصى أبو الحسن عليه السلام إلى ابنه الحسن قبل مضيّه بأربعة أشهر، وأشهدني على ذلك وجماعة من الموالي)**(٧٧).

إذن فالمرحلة الأولى سريّة مسكوت عنها، والثانية غامضة، والثالثة كاشفة للحقيقة مع حذر...

الخاتمة (النتائج والمقترحات):

من آخر العنقود نرتشف أنّ عظماء الرسالة عظماء في كل فعالهم، المحسوسة وغير المحسوسة، ففلسفة إسرارهم ليس كمثلها أي حكومة ظل ولا حكومة علن؛ لأنها حاكت القلوب وحفظت الدين، وقد كشف البحث عن مجموعة من النتائج المهمة وعلى النحو الآتي:

١- كشف البحث عن علو منزلة الامام عند الآخر، سواء أكان من المناوئين مثلما وجدنا عند ابن هرثمة الذي تحول إلى المذهب الإمامي لما رآه من كرامات الامام أم كان من غير المسلمين مثلما رأينا مع النصراني يوسف بن يعقوب، هذا وقد رأينا

ابن الخليفة المتوكل المنتصر يغدو من اتباع الامام الموالين.

٢ـ إذا كان الظرف الصعب الذي عانى منه الإمَام يلان لفلسفتهم الخفية، فهذا يدلّ على أنّ بصيص الأمل يبقى متوهجًا في كل حال، ولا مجال لليأس في معجم الحياة.

٣ـ كشف البحث عن ان استدعاء الامام لسامراء لم يكن لأجل تحقيق الافادة منه عليه السلام مثلما كان بالظاهر، وانما كان لغاية أخرى، وهي جعْله بالقرب من السلطة لكي يكون تحت المراقبة، وقدومه هذا جعله يتعرض في اكثر من مرة لمحاولات التصفية او المضايقة من قبل السلطة، ومن جهة اخرى عاد هذا الامر بالفائدة على الأمة؛ اذ نشر وهج العترة الطاهرة واصبح له منبع جديد في موطن جديد (سامراء).

٤- حث اهل البيت كثيرا على الكتمان وتجنب التشهير بالأعمال، ولا يخلو ذلك من ان المذهب الامامي مذهب متعرض لمضايقات ومحاربات، فكان في انتهاج عدم الظهور بالكتمان والصمت فائدة لحماية الاماميين من العداءات المتوالية.

٥- لا يمكن قراءة تراث الامام الهادي عليه السلام بصورة جزئية، بل لا بد من الاطلاع عليه بصورة عامة رغبة في إيجاد صورة واضحة مع لحاظ كل زمان، فمثلا تجده في موضع ما موريًا وفي موضع آخر مُصرّحًا، وما ذلك إلا بحسب متطلبات الواقع، ومن هذا اننا نلقاه ناهيًا عن شيء في موضع وآمرًا به في زمن آخر.

٦- نجد أنّ التحركات الإمامية بالرغم من تلك الحيطة والحذر إلا أنها استندت إلى قاعدة تنموية مهمّة، وهي (اعمل واجعل الاخرين يعملون معك)، وهذا ما يتجلى واضحًا في تنصيب الوكلاء والعمل على جعلهم يأخذون بزمام الأمور، فقد اراد الامام الهادي للمذهب الامامي أن يكون مذهبا حيويًّا فعالًا، وأن يكون رجاله اصحاب رؤية في تصحيح المسار والمبادرة في اتخاذ القرار.

٧- مثلما كانت هناك مراعاة للزمان في النهج الامامي كانت هناك مراعاة واضحة للمكان؛ فلكل مكان اسسه ومناسباته التي يمكننا بوساطتها التحرك به وتوجيه عجلة الحياة.

٨- استعمال الصفات بدلًا من تحديد الاسماء والتصريح بها يشكل ظاهرة واضحة

عند الامام الهادي عليه السلام وذلك في مسألة تحديد الامامة على النحو من (الكبير من ولدي)، (الذي يصلي علي)...

٩- كشف البحث عن تفوق سلاح الكتمان على أجهزة الظلام معتمداً في ذلك على قضايا من الدراسات الألسنيّة الحديثة من مثل المقامية والافتراض المسبق والمقبولية..، وفي هذه النقطة يرى ضرورة قراءة تراثهم في كنف العلم الحديث، ليرى مدى غناه ومدى استفادة هذا العلم منه، اذ في تراث اهل البيت مادة تطبيقية جلية يمكنها ان تكون مثالا مصححا لصدق القاعدة المطروحة.

١٠- يبدو ان غياب التشخيص مع قضايا خاصة بالائمة المتأخرين من مثل تحديد اسم الام او موعد الميلاد انما يعود إلى كثرة المضايقات والتربص بالسوء ببيت العترة، وهذا ما جعلهم شديدي الحرص باستعمال وسائل تعمل على ابعاد غدر الجلاوزة.

١١- لاحظنا أنّ الكتمان وعدم الإعلان متنوع الأنماط متباين السبل، لدرجة أنه حيّر المقابل، والسبب أنّ التمايز القولي والفعلي يجعله في مواجهة لا يجد لها حلًا، ويتدخل في ذا مقام الحال وطبيعة المخاطب، فهما ركنان مهمان في الكشف عن مقاصد الخفاء فضلًا عن سائر العوامل.

وكل ما عرفته في هذا البحث أن كل تصرف من أهل بيت النبوة سواء أن تكلموا بغير لغتهم أم تكلموا بلغتهم مع تورية أم أضمروا سواء أأمروا أم نهوا سواء أوجزوا أم أطنبوا...، كل ذلك غني بغايات نافعة إلى حد انتفع منه الأجداد، وها نحن نحيى بنفعه وسينعم الأجيال به، إنه معدن الحياة الذي صادق عليه الزمان وأيّده المكان.

ويقترح الباحث مجموعة من الدراسات التي يراها مهمة جدا للغاية:

١- دراسة تراث اهل البيت في ضوء معطيات الالسنية الحديثة، اذ يمكن لهذا النوع من الدراسة ان يكشف الكثير من الاسرار المباركة.

٢- دراسة استدعاء الائمة إلى مراكز الخلافة ـ أسبابه ونتائجه ـ.

٣ ـ مكانة اهل البيت عند الاخر؛ لما في هذا من حجة قوية لإثبات تلك المكانة ولوجود نماذج بارزة تصلح أن تكون أمثلة متميزة لهذا المقترح.

٤- التعايش السلمي عند الامام الهادي عليه السلام ـ أسسه ومنطلقاته ـ

وأرجو ـ بفضل الله ومنّه ـ أن أكون أصبت الحقيقة أو شيئًا منها، فقد كنت في موضوع خفيّ مجاله عسير منالـه... حاولت جهد الغاية أملًا بأنْ يكون هذا المكتوب قيد أنملة في رياض الإمَامة...

هوامش البحث

(١) الكافي: ٦ / ١٩ .

(٢) مناقب آل ابي طالب: ١٢ / ٢٣٥ .

(٣) ينظر: مناقب آل ابي طالب: ١٢ / ٣٣٦ .

(٤) ـ ينابيع المودة لذوي القربى: ١٦٩/٣ .

(٥) فنجد ان الإمَام الكاظم طالبوه بأن يحضر إلى بغداد (اعلام الهداية: ٩/ ١٢٦) وكذلك الإمَام الرّضا طالبوه بالقدوم إلى خراسان ذلك أن ((وجود الامام عليه السلام في العاصمة إلى جنب المأمون يعني ابعاده عن قواعده الشعبية وتحجيم الفرص المتاحة إلى جنب المأمون يعني ابتعاده عن قواعده الشعبية وتحجيم الفرص المتاحة للاجتماع بوكلائه ونوابه المنتشرين في شرق الارض وغربها وابعاد الامام عليه السلام عن قواعده يعني التقليل من التوجيه والارشاد المباشر لها، ومن خلال ذلك يمكن مراقبة الامام عليه السلام مراقبة دقيقة ومعرفة تحركاته ولقاءاته اليومية)) اعلام الهداية: ١٣٥/١٠ .

(٦) مناقب آل ابي طالب: ١٢ / ٣٣٧ .

(٧) ينظر: مناقب آل ابي طالب: ١٢ / ٣٣٦ .

(٨) أشعر ان ختام الائمة (الهادي والعسكري والمنتظر) بمدينة سر من رأى لتكون بيتًا للإمام المهدي يتلاءم مع هدف السماء (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا)، وهذا الأمر يسرُّ الرّائي وكذلك مكان ولادة الإمام يسرّ الرّائي لجماله ورونقه.

(٩) الثاقب في المناقب: ٥٥١ . وتتمة الرواية ستكونه من المصدر نفسه فلا حاجة للتكرار مرة اخرى بذكر المصدر .

(١٠) والاطار يعني المجال الذي يمكن ان تأتي مجموعة من القضايا المتلازمة فيما بينها ويجمع على أطر والأُطُر: تعْني (الأشياء الَّتي تَجْتمعُ مَبْدئيًا معًا دُوْنَ تحْديدٍ في تَرْتيبِ عَمَلِها أو ذِكْرِها) مدخل إلى علم لغة النَّص، د. إلهام أبو غزالة: ١٢٧، ولكن في الرواية اعلاه كسر هذا المبدأ، واقتضى الامر ان يكون المطر الشديد البارد جدا في فصل تموز وهذا مما لا يؤلف، وفي هذا دلالة على الكرامة الامامية .

(١١) ـ الثاقب في المناقب: ٥٥٣ .

(١٢) الثاقب في المناقب: ٥٥٣ .

(١٣) ـ وهذا يذكرنا بناقة النبيّ عند دخوله المدينة ؛ اذ تركت وشأنها لتقف على دار أبي أيوب الأنصاريّ، وليكون فيه محلّ إقامة النبيّ المصطفى، ولكي لا يكون حرج مع الانصار باتخاذ بيت احدهم دون آخر؛ لأنّ ذلك سيبعث على الغيرة، ولكن عندما ترك الأمر للناقة استبشروا بذلك .

(١٤) ينظر: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر: ٤٤ .

(١٥)، فما جاء في عملية التواصل عند ياكوبسون وغيره تقف عاجزة عند حدود كرامة الامام الهادي عليه السلام يُنْظَر: نظريّة علم النّص : ٢٣ .

(١٦) الثاقب في المناقب: ٥٥٥ .

(١٧) أساس البلاغة: ٥٣٦ . وينظر: العين: ٣ / ١٥٥٤، ومقاييس اللغة: ٩١٧ .

(١٨) نهج البلاغة: ٤٤٦ .

(١٩) أصول الكافي: ٢ / ١٣٦، وينظر منه: ٢ / ١٣٦ ـ ١٣٨ .

(٢٠) أصول الكافي: ٢ / ٧٣ .

(٢١) العين: ١ / ٥٠٩ . وينظر: مقاييس اللغة: ٣٢٤، وأساس البلاغة: ١٧١ .

(٢٢) نهج البلاغة: ٤٧٢ .

(٢٣) ـ اعلام الدين في صفات المؤمنين: ٣١٢ .

(٢٤) ـ تاريخ الخلفاء: ٢٤٩ .

(٢٤) ـ تاريخ الخلفاء: ٢٥٣

(٢٥) الارشاد: ٤٨٧ ـ ٣٤٨٨ .

(٢٦)ـ ينظر: المناقب في ال ابي طالب: ٣٤١ وما بعدها .

(٢٧) الفصول المهمة: ٢/ ١٠٦٥ .

(٢٨) ـ تاريخ الخلفاء: ٢٥٤ .

(٢٩) ـ الثاقب في المناقب: ٥٤٥ .

(٣٠) ـ الثاقب في المناقب: ٥٤٣ .

(٣١) ـ هكذا العظماء، همهم بأمتهم لا بمنفعتهم، نجد على سبيل الصحابي الجليل ابا ذر أنه روي عنه ((بكى ابو ذر من خشية الله تعالى حتى اشتكى بصره فقيل له لو دعوت الله يشفي بصرك فقال: إني عن ذلك مشغول، وما هو أكبر همي، قالوا وما يشغلك عنه؟ قال العظيمتان: الجنة والنار)) أمالي الطوسي: ٥٤٢.

(٣٢) ـ إذا كنا نجد ان العترة الطاهرة كثيراً ما ساعدوا السائل المحتاج بأن يعطوه ما يسد حاجته وفوق هذا يكرمونه بالزيادة لتكون له ذخرا في قابل حياته فكذلك نجد في هذه الرواية انقاذاً من عقوبة محتمة واعطاء نصيحة للمتفضَّل عليه تكون بمنزلة النجاة له في قابل حياته، فسخاؤهم عام في الاموال والنصيحة وتحديد الوجهة السليمة في المستقبل .

(٣٣) ـ الثاقب في المناقب: ٥٣٩ .
(٣٤) ـ اعلام الدين في صفات المؤمنين: ٣١١
(٣٥) ينظر: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر: ٤٤ .
(٣٦) حياة الإمَام علي الهادي: ٨٣ والرواية موجودة في: اعلام الدين في صفات المؤمنين: ٣١٢ .
(٣٧) ـ الثاقب في المناقب: ٥٥٠ ـ ٥٥١ .
(٣٨) ـ الثاقب في المناقب: ٥٤٠ .
(٣٩) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٣٢ .
(٤٠) الإرشاد : ١ / ٤٨٨ ـ ٤٨٩ ، وينظر: الدمعة الساكبة: ٨ / ١١٨ .
(٤١) لمزيد من الأمثلة ينظر: أصول الكافي: ١ / ٣٢٤، ١ / ٣٢٥، ١ / ٣٢٧ .
(٤٢) ـ الثاقب في المناقب : ٥٣٧ .
(٤٣) ـ الثاقب في المناقب: ٥٤٠ ـ ٥٤١ .
(٤٤) ينظر: تذكرة الخواص: ٢ / ٤٩٤، ٢ / ٤٩٦ .
(٤٥) البُرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ١١٧ .
(٤٦) ريفاتار: أستاذ في جامعة كولومبيا ـ أبرز جامعة في نيويورك بالولايات المتّحدة ـ اختصّ بالدّراسات الأسلوبيّة، وأبرز مؤلّفاته "محاولات في الأسلوبيّة والبنيويّة "، يُنْظَرُ: الأسلوبيّة والأسلوب: ١٩٤ .
(٤٧) الأسلوبيّة والأسلوب: ٦٨ .
(٤٨) مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٧٢٢ .
(٤٩) ينظر: نفحات من سيرة أئمة أهل البيت: ٣٤٤ .
(٥٠) كمال الدين وتمام النعمة: ١/ ٤٤٨ ، وينظر الدمعة الساكبة: ٨ / ١١٣ ـ ١١٥ .
(٥١) كمال الدين وتمام النعمة: ١ / ٤٤٨ .
(٥٢) . مناقب آل أبي طالب: ٤١٧/١٢ .
(٥٣) أمالي الطوسي: ٢١٥ ـ ٢١٦ .
(٥٤) سيرة الأئمة الاثني عشر: ٢ / ٤٥٦.
(٥٥) حياة الإمَام علي الهادي: ١٠٥ .
(٥٦) سورة ق: ٣٧ .
(٥٧) حقائق التأويل في متشابه التنزيل: ٢٢ .
(٥٨) الكافي: ٤ / ١٧٤ .
(٥٩) ـ الأساليب التربوية عند أئمة أهل البيت عليهم السلام: ٢ / ٤٦٠ .
(٦٠) ـ أعلام الهداية: ١٢ / ١٨٧ .
(٦١) نفحات من سيرة أئمة أهل البيت: ٣٥١ .

(٦٢) ينظر: دلائل الإمَامة: ٢١٣، و تذكرة الخواص: ٢ / ٤٩٣ .
(٦٣) الحياة الفكريّة والسياسية لأئمة أهل البيت: ١٣٢، وأم الإمَام العسكري ((أم ولد تسمى شكل النوبيّة، ويقال سوسن المغربيّة، ويقال منغوسة ... ويقال حديث)) دلائل الإمَامة: ٢٢٠ ..
(٦٤) أعلام الهداية: ١٢ / ١٤٠ ـ ١٤١ .
(٦٥) أعلام الهداية: ١٢ / ١٥٦ .
(٦٦) الإرشاد: ٤٨٨ .
(٦٧) أعلام الهداية: ١٢ / ١٥٩ ـ ١٦٠ .
(٦٨) أعلام الهداية: ١٢ / ١٨٧ .
(٦٩) أصول الكافي ١ / ٣١٩ .
(٧٠) أصول الكافي: ١ / ٣١٩
(٧١) أصول الكافي: ١ / ٢٠٠ .
(٧٢) أصول الكافي: ١ / ٢٠٠ .
(٧٣) منتهى الآمال: ٢ / ٥٠٧ .
(٧٤) أصول الكافي: ١ / ٢٠٠، وينظر الإرشاد: ٤٩٧ .
(٧٥) ينظر: أصول الكافي: ١ / ١٩٩ .
(٧٦) أصول الكافي: ١ / ٢٠٠ .
(٧٧) أصول الكافي: ١ / ١٩٩ .

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

١. الأئمة الاثنا عشر (دراسة تحليلية)، عادل الأديب، مركز الغدير للدراسات الإسلامية (د.ت).
٢. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الإمَام محمد بن محمد بن النعمان البغدادي الملقب بالمفيد (٤١٣هـ)، مكتبة الصفا، قم المقدسة ـ إيران، ط١، ١٤٢٨ هـ
٣. أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.
٤. الأساليب التربوية عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، السيد أبو هشام عبد الملك الموسوي، دار الزهراء، قم ـ إيران، ط١، ١٣٢٧ هـ.

٥. الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المِسدّيّ، دارُ الكُتُب الوطنيّةِ، بنغازي ـ ليبيا، ط٥، ٢٠٠٦م ـ

٦. أصول الكافي، الشيخ محمد يعقوب الكلينيّ (ت ٣٢٩ هـ)، منشورات الفجر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م.

٧. اعلام الدين في صفات المؤمنين، الشيخ الحسن بن ابي الحسن الديلمي (من اعلام القرن الثامن الهجري)، تح: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت ـ لبنان، ط٣، ٢٠١٥ م.

٨. أعلام الهداية (الجزء١٢)، المجمع العالمي لأهل البيت، قم ـ إيران ط٢، ١٤٢٥هـ.

٩. الأمالي، شيخ الطّائفة أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن الطّوسيّ (ت ٤٦٠ ه)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٠. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدِّيْن عبد الواحد بن عبد الكريم الزّملكانيّ (ت٦٥١هـ)، تح: د.خديجة الحديثيّ، ود. أحمد مطلوب، مطبعة العاني ـ بغداد، ط١، ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م.

١١. تاريخ الخلفاء، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٢. التداوليّة عند العلماء العرب (دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللسانيّ)، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

١٣. تذكرة الخواص من الأمة بذكر خصائص الأئمة، يوسف بن سبط الجوزي (٦٥٤هـ)، تح: حسين تقي زاده، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط١، ١٤٢٦ هـ.

١٤. الثاقب في المناقب، عماد الدين أبو جعفر محمد بن علي الطوسي المعروف بابن حمزة من أعلام القرن السادس، تح: الاستاذ نبيل رضا علوان، مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر، قم - ايران، الطبعة: الثانية / ١٤١٢ .

١٥. حقائقُ التّأويل في متشابه التّنزيل، السَّيِّد الشَّرِيْف الرَّضِيّ (ت٤٠٦ هـ)، تح: مُحَمَّد الرِّضا آل كاشف الغطاء، دارُ الأضْواء، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٦. حياة الإمَام علي الهادي، الشيخ محمد رضا الحكيمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٧. دلائل الإمَامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبريّ (مؤسسة الأعلميّ، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٨. الدمعة الساكبة في أحوال النبي والعترة الطاهرة، محمد باقر بن عبد الكريم البهبهاني (ت ١٢٨٥هـ)، مؤسسة الأعلميّ، بيروت ـ لبنان، تح: شيخ حسين الأعلميّ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٩. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ)، تح:د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الميلاد، قم، ط١، ١٤١٤هـ.

٢٠. الفصول المهمة في معرفة الائمة، علي بن محمد بن الصباغ المالكي(ت ٨٥٥ هـ) ـ، تح: سامي الغريري، دار الحديث، ط١، ١٤٢٢ هـ.

٢١. في الجهاز المفاهيمي للدرس التداوليّ المعاصر د. مسعود صحراويّ ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: د. حافظ إسماعيل، عالم الكتب الحديث، أربد الأردن،٢٠١١م.

٢٢. الكافي، الشيخ الكليني (ت ٣٢٩هـ)، علي أكبر الغفاري، دار الكتب الاسلامية، طهران، ط٣، قم، ايران، ١٣٦٢.

٢٣. كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، تح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ايران، ط٥، ١٤٠٥ هـ.

٢٤. مدخل إلى علْم لُغةِ النّصّ ـ تَطْبيقاتٌ لنَظريّةِ روبرت ديبوجراند وولفانج دريسلر ــ، د. إلهام أبو غزالة، وعليّ خليل، الهيئة المِصْريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٩م.

٢٥. المقاييس في اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تح: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤هـ

٢٦. مناقب آل ابي طالب، ابن شهر آشوب، تح: السيد علي جمال اشرف الحسيني، المكتبة الحيدرية، قم، ١٤٣١هـ.

٢٧. منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، الشيخ عباس القمّيّ، تر: نادر التقيّ، مؤسسة المحبين، إيران ـ قم، ط١.

٢٨. نظريّة علم النّصّ (رُؤية منهجيّة في بناءِ النّصّ النثريّ)، د. حسام أحمد الفرج، مكتبة الأنجلو المِصْريّة، ط ١، ١٤٢٨ه ـ ٢٠٠٧م.

٢٩. نفحات من سيرة أئمة أهل البيت، باقر شريف القرشي، المؤسسة الإسلامية، قم ـ ايران، ط٦، ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م.

٣٠. نهج البلاغة، تح: د. صبحي الصالح، مركز البحوث الإسلاميّة، إيران ـ قم، ١٣٩٥هـ.

٣١. ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن ابراهيم القندوزي (ت ١٢٩٤هـ)، تح: سيد علي جمال اشرف الحسيني، دار الاسوة للطباعة والنشر، ايران، قم، ١٤١٦هـ،ط٢.